موسی

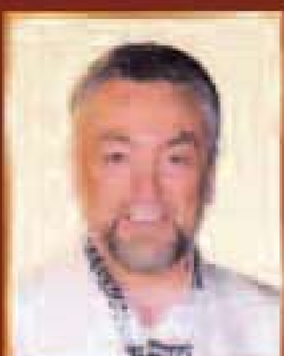
علیہ السلام



ہارون یحیی

إلا أن اسم نبيء الله موسى(ع) قد تردد أكثر من غيره من الرسل في القرآن، فقد وردت الإشارة إلى اسمه في ٣٤ موضعا مختلفا من سور القرآن الكريم، كما نجد وصفا مفصلا ومطولا لسيرة هذا النبيء في ثلاثة من أهم سور القرآن (الأعراف – طه – القصص)، وقد تضمنت هذه السور والآيات وصفا حيا و مفصلا للظروف التي اكتنفت طفولة موسى(ع) والمواجهة الشرسة التي وقعت بينه وبين فرعون وعناد قومه ومصابرته في تبليغ رسالة الله، وثباته في وجه ظروف بالغة القسوة.

وسنعرض في هذا الكتاب قصة حياة نبيء الله موسى عليه السلام كما يصورها القرآن، متتبعين ما جاء في الكتاب الكريم من وصف للأحداث التي تعرض لها. ولا ينبغي لنا ونحن نطوّف في رحاب قصة هذا النبيء الكريم أن ننظر إليها على أنهاحكاية من الماضي البعيد، بل يجب أن نجعلها نموذجا نهتدي به في حياتنا الحاضرة ونستقي منه التجارب والعظات والعبر.



حول الكاتب

ولد عدنان أوقطار عام ١٩٥٦، وهو يستعمل الاسم المستعار هارون يحيى. ومنذ الثمانيات من القرن الماضي كتب عدداً كبيراً من المؤلفات في مواضيع مختلفة، إيمانية وعلمية وسياسية، إلا جانب ذلك يوجد للكاتب مؤلفات في غاية الأهمية تكشف زيف أتباع نظرية التطور، وتفند ادعاءاتهم، وتفضح الصلات الخفية، بين الداروينية والأيديولوجيات الدّموية.

وهدف المؤلف الرئيسي من وراء أعماله هو إيصال نور القرآن الكريم إلى شتى بقاع العالم، ودفع الناس بذلك إلى التفكير والتفكر في قضايا إيمانية أساسية مثل وجود الله تعالى ووحدانيته، واليوم الآخر، وكذلك كشف الأسس المتهاوية لنظم الجاحدين وسلوكياتهم المنحرفة. وإلى حدّ الآن ترجم للكاتب نحو ٢٥٠ مؤلفا إلى ٥٧ لغة مختلفة، وهي تحضى باهتمام بالغ من قبل شريحة واسعة من القرّاء. وبإذن الله تعالى سوف تكون كليات هارون يحيى خلال القرن الواحد والعشرين، وسيلة للبلوغ بالإنسان في شتى أنحاء العالم إلى مراتب السكينة والسلام والصدق والعدل والجمال والسعادة التي جاء التعريف بها في القرآن الكريم.


بسم الله الرحمن الرحيم
الله
رسول
محمد

والآراء الإلحادية والأفكار المُنحرفة الأخرى.

وإذا حدث وأن نافح منافح عن تلك النظريات بعد مطالعة هذه المؤلفات فلن يكون ذلك سوى عن عنادٍ عاطفي لأنّ السّند العلميّ قد تمّ دحضه وإبطاله. ولا شك أن هذه الخصائص نابعة من قوة حكمة القرآن وحُججه الدّامغة. والكاتب لا يسعى من وراء عمله هذا إلى نيل المديح والثناء إنما هدفه وغايته هداية الناس والسير بهم في طريق الإيمان، كما أنّ ليس همّه تحصيل أيّ ربح أو مكسب مادّي.

وعلى ضوء هذه الحقائق، فإن الذين يساهمون في نشر هذه الكتب ويحثون الناس على قراءتها لتكون وسيلة لهدايتهم هم في الحقيقة يقدمون خدمة للدين لا تقدّر بثمن.

وعلى هذا الأساس، فإنّ العمل على نشر الكتب التي ثبت بالتجرية أنها تشوش الأذهان وتُدخل البلبلة على الأفكار وتزيد من الشّكوك والتردّد ولا تملك تأثيرًا قويّا وحاسمًا في طرد الشبهات من القلوب، يُعتبر مَضيعةً للجهد والوقت. ومن الواضح أن هذه المؤلفات لم تكن لتترك كل هذا التأثير لو كانت تركز على بيان القوة الأدبية للكاتب أكثر من تركيزها على الهدف السامي المتمثل في هداية الناس. ومن لديه أدنى شك في ذلك فيمكنه أن يتحقّق من أن الغاية القصوى هي دحض الإلحاد ونشر أخلاق القرآن من خلال تأثير هذا الجهد وإخلاصه ونجاحه.

يتعين إدراك حقيقة مهمة، وهي أن الظلم والفوضى السائدين اليوم في أنحاء الأرض وما يتعرض له المسلمون من أذى سَببه تحكّم الفكر الإلحادي في شؤون العالم. والطريق الذي يضمن الخلاص من هذا كلّه هو إلحاق الهزيمة بالفكر الإلحادي وبيان حقائق الإيمان و إجلاء الأخلاق القرآنية بحيث يُصبح النّاس قادرين على التمسك بها. وبالنظر إلى حالة العالم وما يُراد له من مزيد جرّه إلى الفساد والشّرور والدمار فإنه من الضروري المُسارعة قدر المستطاع إلى القيام بما هو ضروري، وإلا فقد يُقضى الأمر ولاتَ حين مناص. وخلال القرن الواحد والعشرين، وبإذن الله تعالى سوف تكونُ كليّات هارون يحيى –من خلال نهوضها بهذه المهمّة– الوسيلة للوصول بالنّاس إلى مراتب السكينة والسلام والصدق والعدل والجمال والسعادة التي أوضحها لنا القرآن الكريم.



حول الكاتب

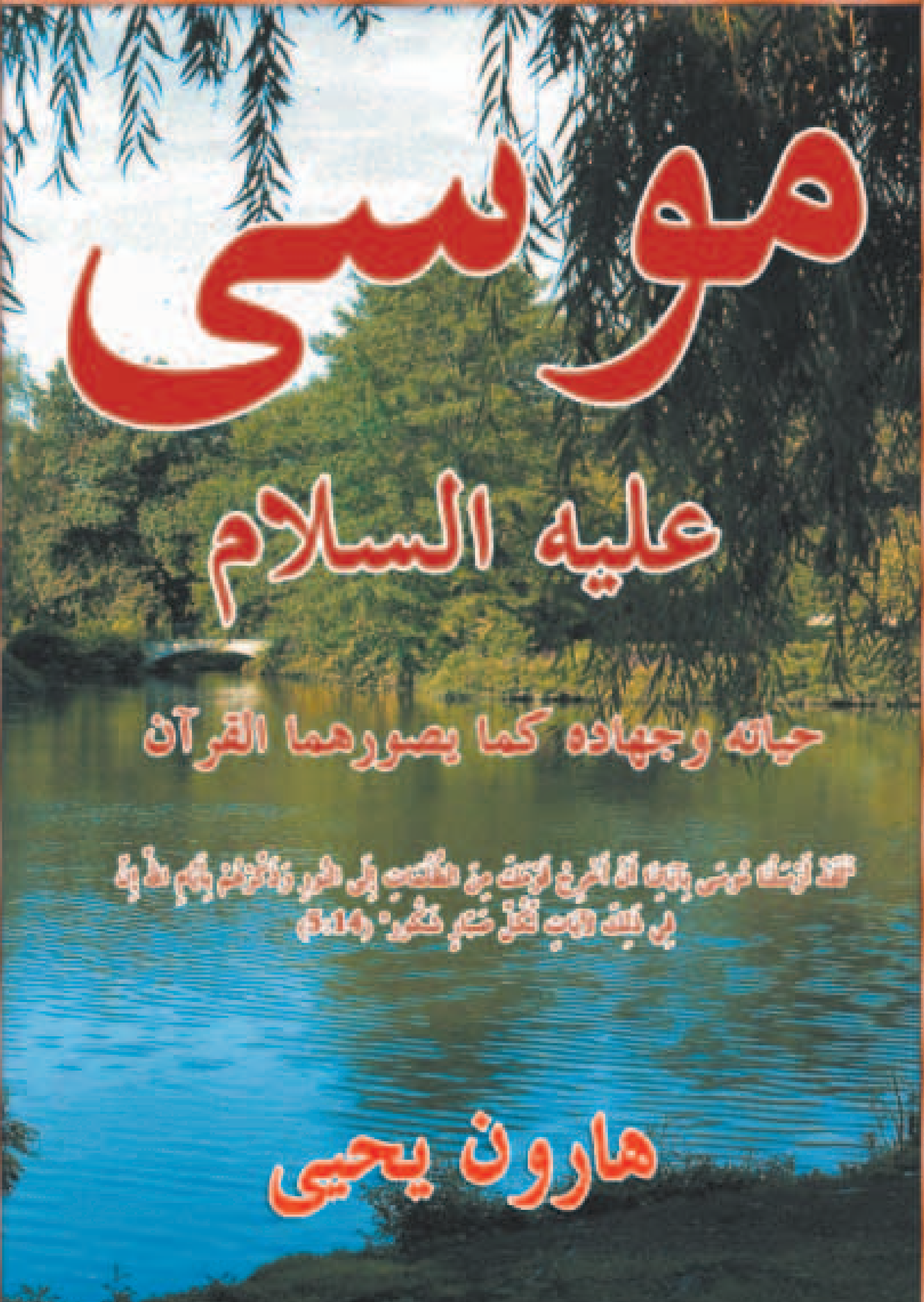
يتكون الاسم المستعار للكاتب من "هارون" و "يحيى" في ذكرى موقرة للنبيين اللذين جادلا ضد الكفر والإلحاد، بينما يظهر الخاتم النبوي على الغلاف رمزًا لارتباط المعاني التي تحتويها هذه الكتب بمضمون هذا الخاتم. ويشير هذا الخاتم النبوي إلى أنّ القرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية، وأنّ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو خاتم النبيين. وقد اتخذ الكاتب لنفسه القرآن الكريم والسنة النّبوية دليلاً ومرشدًا، وفي جميع المؤلفات أخذ العهد على نفسه بنسف جميع الأسس التي تقوم عليها النظم الإلحادية وإبطال كل المزاعم التي تقوم عليها الحركات المناهضة للدّين. ويعتبر هذا الخاتم الذي مَهر به كتبه بمثابة إعلانٍ عن أهدافه هذه.

تدور جميع كتب المؤلف حول هدف رئيسي هو تبليغ نور القرآن ورسالته لجميع الناس، وحثهم على الإيمان بوجود الله ووحدانيته واليوم الآخر، وعرض تهافت النظم الإلحادية وفضحها على الملإ.

تحضى كتب هارون يحيى بقبول واهتمام كبيرين في شتى أنحاء العالم؛ من الهند إلى أمريكا، ومن إنكلترا إلى أندونيسيا، ومن بولونيا إلى البوسنة، ومن إسبانيا إلى البرازيل، ومن ماليزيا إلى إيطاليا، ومن فرنسا إلى بلغاريا وروسيا.

ترجمت كُتب المؤلّف إلى العديد من اللّغات الأجنبية، ومن بين تلك اللغات: الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية والأوردية والعربية والألبانية والروسية والبوسنية والإويغورية والاندونيسية والمالاوية والبنغالية والصربية والبلغارية والصينية والسواحلية (لغة مستعملة في تنزانيا) ولغة الهوسه (لغة منتشرة في إفريقيا)، ولغة الدّيولهي (لغة مستخدمة في موريس) والدانماركية والمجرية وغيرها من اللغات. و هناك إقبال كبير على قراءة هذه الكتب بهذه اللغات.

لقد أثبتت هذه المؤلفات جدارتها، ووجدت تقدير كبيرًا في كافة أنحاء العالم. وقد كانت سببًا في هداية كثير من الناس إلى طريق الإيمان وساهمت من جانب آخر في تقوية إيمان كثير من المؤمنين. وكل من يقرأ هذه الكتب ويتأمل فيها يلاحظ بوضوح الحكمة البالغة التي تكمن فيها والسهولة الموجودة بين ثنايا سطورها والصدق الذي يميز أسلوبها والعمق في تناول القضايا العلمية. وما يميّز هذه المؤلفات أيضا سُرعة تأثيرها وضمان نتائجها وعدم القدرة على نقض ما فيها ودحضه. وكل من يقرأ هذه الكتب ويتأمل فيها بعمق لن يكون بإمكانه بعد ذلك الدّفاع عن الفلسفات المادية



موسى

عليه السلام

حياته وجهاده كما يصورهما القرآن

ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن
في ذلك لآيات لكل صبار شكور (14:5)

هارون يحيى



فهرس الكتاب

موسى عليه السلام

موسى
عليه السلام

مقدمة

لا نعدو الحقيقة إن قلنا إن تاريخ البشرية هو تاريخ الرسل، فلقد أنزل الله رسالاته إلى الناس بواسطة رسله على امتداد تاريخ البشرية، فأخبر هؤلاء الرسل أقوامهم عن خالقهم وأبلغوهم رسالات ربهم. وفي القرآن وصف دقيق ومفصل لجهاد هؤلاء الرسل في سبيل الله، إذ حوى القرآن وصفا جليا لما لقوا من عنت وما جاؤا به من شرائع وما تحلوا به من سلوك رفيع يعز نظيره. وقد قص الله قصص وجهاد هؤلاء الأنبياء لتكون مثالا وعبرة للناس في كل زمان ومكان.

سرد القرآن قصص وتجارب عدد من الرسل كعيسى وسليمان ويوسف ونوح وإبراهيم (عليهم السلام)وكثيرين غيرهم لتكون أسوة للناس. وثمة فوائد كثيرة يمكن أن تستفاد من السلوك القويم الذي كان يتحلى به نبي الله يوسف عليه السلام والدروس المتعلقة بالسلوك الإنساني والتي تتجلى في علاقته بإخوته، وفي حادثة إلقائهم إياه في الجب، وتعرضه للاسترقاق، ودخوله السجن أثناء إقامته في قصر عزيز مصر عبدا مملوكا بسبب اتهامات جائرة، ثم خروجه بعد ذلك كله من السجن وتوليه منصب وزير الشئون المالية في حكومة عزيز مصر.

ويخبرنا القرآن أيضا أن لنا أسوة حسنة في نبي الله إبراهيم عليه السلام، وذلك لما كان عليه من تقوى ورحمة وتوكل على الله والتجاء إليه حين قذف به قومه في النار الهائلة بغية التخلص منه.

إلا أن اسم نبيء الله موسى(ع) قد تردد أكثر من غيره من الرسل في القرآن،

فقد وردت الإشارة إلى اسمه في ٣٤ موضعا مختلفا من سور القرآن الكريم، كما نجد وصفا مفصلا ومطولا لسيرة هذا النبيء في ثلاثة من أهم سور القرآن (الأعراف – طه – القصص)، وقد تضمنت هذه السور والآيات وصفا حيا و مفصلا للظروف التي اكتنفت طفولة موسى(ع) والمواجهة الشرسة التي وقعت بينه وبين فرعون وعناد قومه ومصابرته في تبليغ رسالة الله، وثباته في وجه ظروف بالغة القسوة.

وسنعرض في هذا الكتاب قصة حياة نبيء الله موسى عليه السلام كما يصورها القرآن، متتبعين ما جاء في الكتاب الكريم من وصف للأحداث التي تعرض لها. ولا ينبغي لنا ونحن نطوّف في رحاب قصة هذا النبيء الكريم أن ننظر إليها على أنهاحكاية من الماضي البعيد، بل يجب أن نجعلها نموذجا نهتدى به في حياتنا الحاضرة ونستقي منه التجارب والعظات والعبر.

حكم فرعون في مصر ووضع بني إسرائيل

كانت حضارة مصر إحدى أقدم الحضارات في التاريخ، وكان لها نظام إجتماعي وسياسي هو الأول من حيث التنظيم. وكان اختراع قدماء المصريين لفن الكتابة في عام ٣٠٠٠ ق.م. واستخدامهم لنهر النيل ووجود الصحارى التي كانت تحيط بدولتهم لتشكل خط دفاع طبيعي قوي في وجه المهددات الخارجية، عوامل مهمة أسهمت بنصيب وافر في إنجاح مسيرة الحضارة المصرية.

إلا أن تلك الحضارة العظيمة كانت تخضع لحكم الفراعنة الذين وصف القرآن الكريم عهدهم بالتسلط والضلال والقسوة. لقد عتى أولئك الفراعنة عن أمر ربهم وعصوا أمره وتمادوا في إنكار الحق، فسخط الله عليهم وسلط عليهم بأسه فلم تغن عنهم حضارتهم المتقدمة ونظامهم السياسي والاجتماعي وقدراتهم فتيلا.

تتصل أهم أحداث التاريخ المصري بوجود بني إسرائيل في أرض مصر. وإسرائيل هو الاسم الثاني لنبيء الله يعقوب عليه السلام. وكان أبناء يعقوب (الأسباط) قد كونوا كيان بني إسرائيل، تلك القبيلة التي باتت تعرف فيما بعد باسم "اليهود". ووقعت أول هجرة لليهود إلى مصر في عهد نبيء الله يوسف عليه السلام، أصغر أبناء يعقوب عليه السلام. وقد تضمنت سورة يوسف وصفا مفصلا لحياة هذا النبيء الكريم. واجه يوسف منذ طفولته الباكرة مصاعب كثيرة وتعرض

لاعتداءات وتجنيات جمة. إلا أن إرادة الله الغالبة شاءت له أن يتغلب على تلك المحن ويصبح أمينا لخزائن الدولة المصرية وذلك إثر خروجه من السجن الذي زج به فيه ظلما وجورا. وعقب تولي يوسف(ع) ذلك المنصب المرموق تدفق سيل هجرات بني إسرائيل إلى مصر. وقد وصف القرآن ذلك في قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ ﴾ (١٢:٩٩).

وطبقا لوصف القرآن، فإن بني إسرائيل الذين أقاموا بسلام آمنين في مصر، فقدوا في نهاية الأمر وضعهم في المجتمع، ثم تحولو بمرور الوقت إلى رقيق. ونفهم من نصوص القرآن أن بني إسرائيل كانوا يرسفون في أغلال العبودية إلى

نقش حجري مصري قديم يصوّر دخول بني إسرائيل مصر

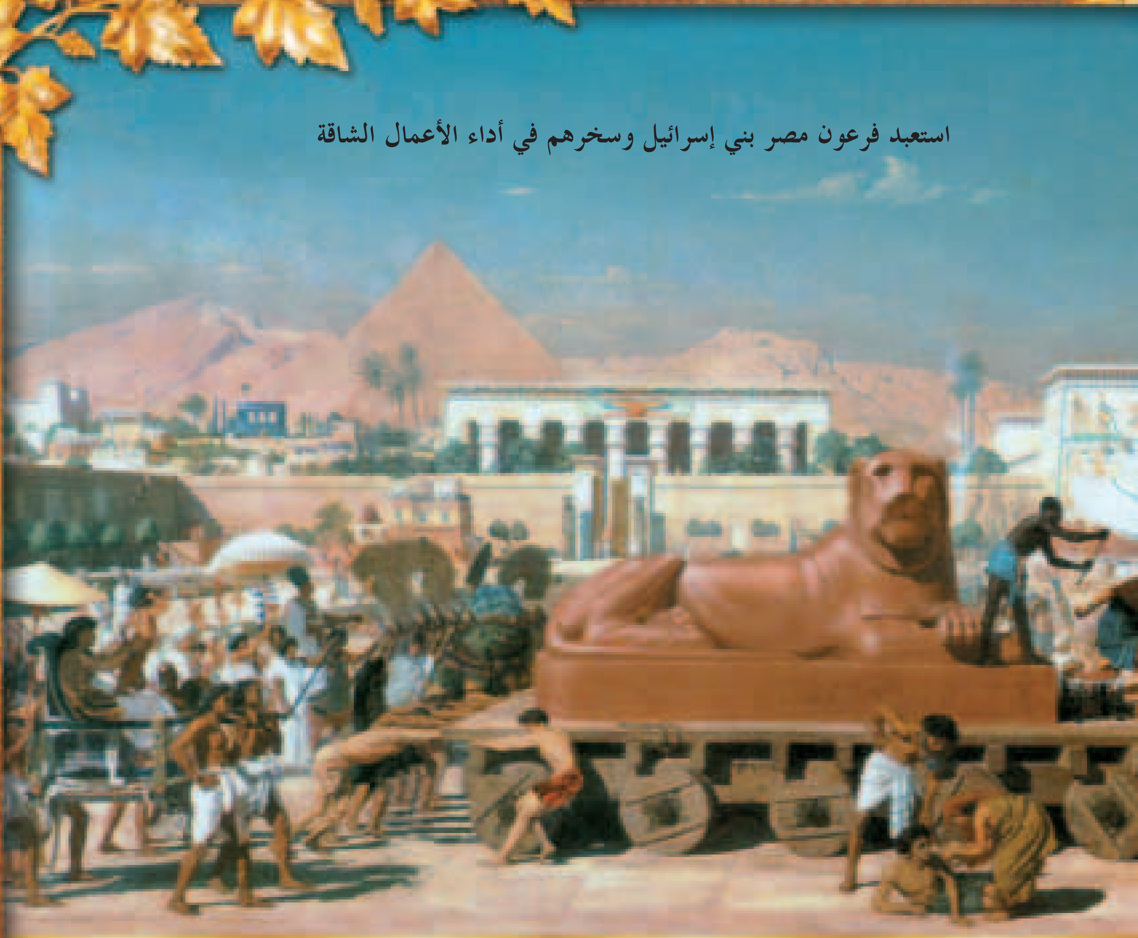




أن ظهر موسى عليه السلام على مسرح الأحداث والذي سعى لتحرير قومه من استعباد فرعون، وهي حقيقة تؤكدها الإجابة المتغطرسة التالية التي رد بها فرعون وملأه على موسى وهارون عليهما السلام:

﴿ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾ (٩:١٢).

وكما تصف هذه الآيات، فقد استعبد المصريون بني إسرائيل وسخروهم لخدمتهم وساموهم مر القهر والاضطهاد لترسيخ نظام العبودية هذا ولضمان بقائه واستمراره. وبلغ هذا الضغط حدا جعل المصريين يتحكمون بتركيبة وأعداد الجالية اليهودية، إذ حدوا من نسبة الذكور من بني إسرائيل لأن تكاثرهم سيشكل



خطرا على بقاء المصريين أنفسهم، في حين استبقوا الإناث منهم ليضطلعن بخدمة أسيادهن من المصريين. وقد عرض القرآن هذا الوضع في الآيات التي خاطب الله فيها بني إسرائيل:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (٢:٤٩)، **﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾** (٧:١٤١).

كانت الديانة السائدة في مصر في ذلك الوقت مستمدة من الممارسات

والطقوس الوثنية لأسلاف فرعون. وبموجب هذه الديانة الفاسدة كانت هناك آلهة شتى من بينهم فرعون الذي كان يعد إلها يمشي على الأرض. والحق أن هذا الاعتقاد هو الذي أتاح لفرعون تلك السلطة والهيمنة القابضة على رعاياه. وقد رأى فرعون وملأه في دعوة موسى تهديدا لطريقة الحياة التي ورثوها من أسلافهم، والتي تحصر كل السلطة والمجد في شخص فرعون. إن تجبر فرعون وولعه بالسلطة ونظرته لموسى وهارون(**عليهم السلام**) كمنافسين، تعكسها العبارات التالية التي خاطبهما بها:

نقش حجري مصري قديم يصوّر استعباد بني إسرائيل في مصر. في الإطار الأمامي للنقش يبدو فرعون وبطانته أما في الإطار الخلفي فيبدو عبيد إسرائيليون وعلى رقابهم الحبال والسلاسل.



﴿ قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٧٨:١٠)

ادعى فرعون الألوهية زاعما أنه رب المصريين الأعلى:

﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ (٢٤:٧٩)

وقد دفعت العقيدة الفاسدة التي اعتنقها فرعون وبطانته إلى الاعتقاد بأنهم كائنات مقدسة يحق لها أن تستخدم أساليب العنف والقهر لإخضاع الناس. والآية التالية تشير إلى هذا التعالي والتجبر:

﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴾ (٤٦:٢٣).

لقد كان لفرعون نفوذ عظيم على المصريين الذين خضعوا له وأطاعوه واعتقدوا أنه وحده الذي يملك أرض مصر ونهر النيل:

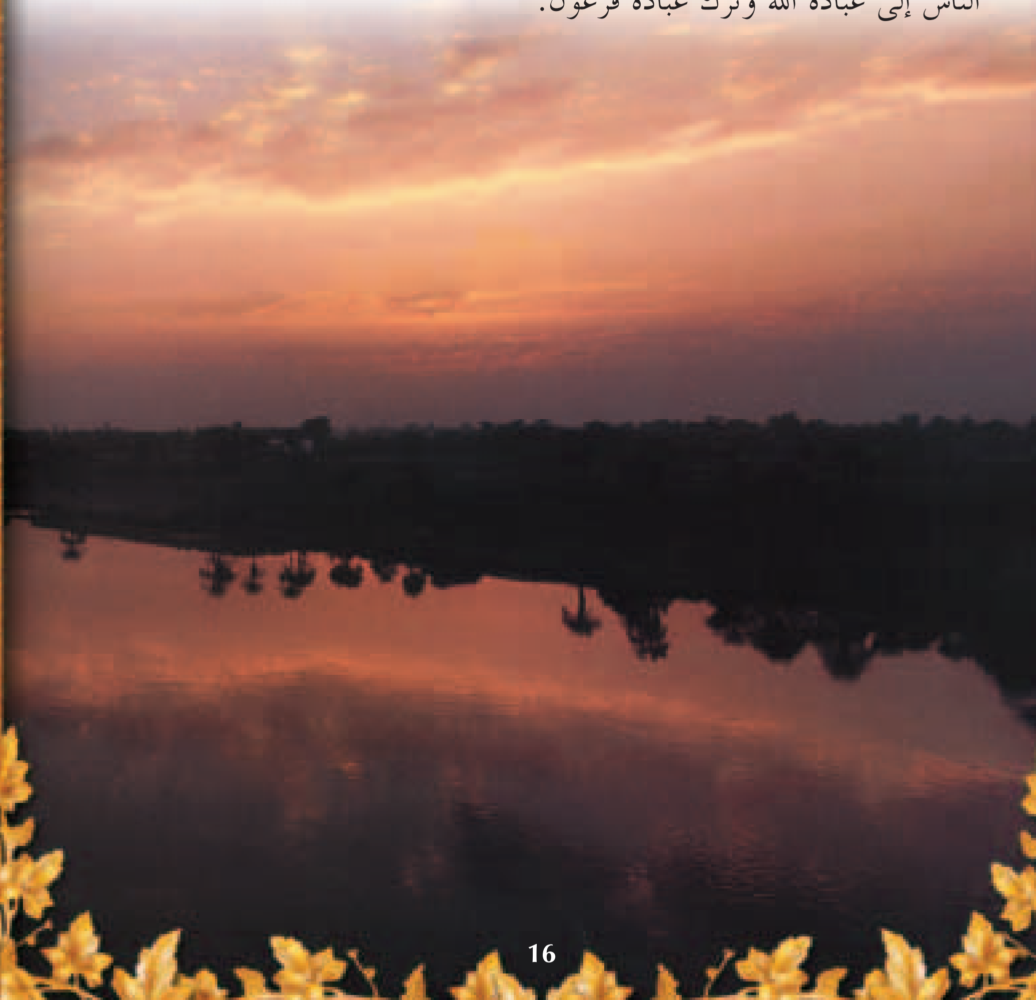
﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٥١:٤٣).

كان النيل لمصر كالروح للجسد، فمن مائه كانت تروى الزروع ويستقي الناس والأنعام. وكان فرعون قد زعم أنه المالك الوحيد للنيل وللأرض التي بجري فيها، وهو بذلك يستحق أن تخضع له رقاب المصريين وترضى بحكمه. ولكي يتسنى لفرعون الإبقاء على سلطته واستدامة خضوع قومه له، عمد إلى تفريقهم شيعا وأحزابا ثم بسط سيطرته عليهم. ويلفت الله أنظارنا إلى هذه الحقيقة بقوله:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ

أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٢٨:٤)

والحق أن مصر كانت قبل ميلاد موسى تغوص في لجج الفساد والحرمان، وكانت العلاقات بين أهلها قائمة على نظام التفرقة العنصرية الذي تتعرض بسببه جماعات للعبودية والاستغلال الذي بلغ مداه بصدور القرار الفرعوني القاضي بقتل كافة المواليد الذكور الذين يولدون لرعاياه من بني إسرائيل. وفي ظل هذه الظروف ابتعث الله سبحانه وتعالى موسى(ع) ليخلص قومه من قهر وطغيان فرعون وليدعو الناس إلى عبادة الله وترك عبادة فرعون.



مولد موسى عليه السلام

لقد ولد موسى (ع) في ظل ظروف بالغة التعقيد والخطورة، وواجه مخاطر كبيره هددت حياته منذ لحظة ميلاده. أمر فرعون، كما أسلفنا، بقتل الولدان الذكور من بني إسرائيل، واستحياء الإناث بهدف استرقاقهن، فحتمت هذه الظروف على موسى أن يحيا في جو من الذل والقهر والخوف. وكانت أمه خائفة عليه إلى أن جاءتها البشارة من الله:

﴿ وأوحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٢٨:٧)

أوصى الله أم موسى أن تضع وليدها في صندوق ثم ترمي به في النيل. وأطاعت أم موسى أمر الله لأنها كانت خائفة على وليدها من جنود فرعون، فوضعته في الصندوق ودفعته إلى داخل النهر دون أن تدري ماذا سيفعل تياره بإبنها وإلى أين سيحمله. لكنها كانت تعلم بفضل طمأنة الله لها أن ابنها سيعود إليها في نهاية الأمر وسيصبح نبيا.

وكان الله قد ذكر موسى(ع) بملابسات وأحداث طفولته الباكرة قائلا:

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى. أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّه ﴾ (٣٨، ٣٩ :٢٠).

ويجدر بنا هنا أن نتوقف عند موضوع القدر. فكما أشارت الآية سالفة الذكر، فقد أمرالله أم موسى أن تلقي به في الماء وأنبأها مسبقا أن التيار سيأخذه

إلى مساكن فرعون حيث سيلتقطه آل فرعون ويعنون به ويرحمونه، وأن موسى(ع) سيعود إليها في نهاية الأمر نبيا مرسلا، وذلك لأن الله قدر وقوع هذه الأحداث مسبقا.

وهنا يتعين علينا الإشارة إلى أن كافة التفاصيل المتعلقة بحياة موسى عليه السلام قد سبق بها قدر الله وأنها وقعت على النحو المرسوم في القدر. ولقد كان تحقق وعد الله لأم موسى موقوفا على وقوع أشراط معينة هي:

-١لابد أن الصندوق الذي وضع فيه موسى(ع) كان محكما لا ينفذ **اليه** الماء، ومعنى هذا أن الشخص الذي صممه قد أعده بطريقة تجعله يطفو على الماء، كما كان لشكل الصندوق دور في تحديد سرعة اندفاعه مع تيار الماء. وكان يتعين على الصندوق أن لا يسرع فيتجاوز قصر فرعون ولا يبطئ فيرسو قبل أن يبلغ القصر. وعليه فلا بد أن يكون الصندوق قد أعد بطريقة تتيح له التوقف في الموقع المطلوب. وهذه التفاصيل جميعها جزء من قدر الشخص الذي اضطلع بنحت الصندوق فجاء بالكيفية التي إرادها الله سبحانه وتعالى.

-٢كان لابد للتيار الذي حمل الصندوق أن لا يكون سريعا جدا ولا بطيئا جدا. ولا يتأتى هذا إلا بحساب دقيق لمقدار مياة الأمطار التي شكلت كثافة مياه النيل في الدقيقة الواحدة. وهذا المقدار من مياه الأمطار هو أيضا جزء من التفاصيل الدقيقة للقدر الإلهي المقدور.

-٣لابد أن الرياح التي كانت تهب في ذلك الوقت قد أثرت على سير الصندوق بشكل مناسب. أي أن الرياح كانت تهب وفق خطة إلهية مقدورة. فلم

يكن هبوبها سريعا فيجرف الصندوق أو يغير وجهته ولا بطيئا فيحد من سرعته.

-٤لم يكن بمقدور أحد أن يعثر على الصندوق أثناء وجوده في النهر. أي أنه لم يكن لأحد أن يرى الصندوق سوى الشخص أو الأشخاص الذين قدر لهم العثور عليه. وهذه الشروط هي في الحقيقة جزء من قدر الله.

-٥كانت حياة فرعون وأهل بيته في ذلك اليوم، مثلها في ذلك مثل حياة موسى(ع) ، مقدرا لها أن تكون على نحو معين. فلا بد أنهم كانوا في الوقت والمكان المناسب الذي يتيح لهم العثور على موسى(ع).

إن العوامل التي سلف ذكرها ليست سوى بعض الأسباب التي مكنت فرعون من العثور على موسى(ع). وقد وقعت جميعها على النحو الذي أطلع الله عليه أم موسى. كما جاءت جميع الأحداث الأخرى التي وقعت بالكيفية المحددة في قدر الله.

ولا تقتصر الأحداث المتصلة بمصير موسى عليه السلام على ما سلف ذكره، بل إن كل لحظة من حياته كانت تجري على قدر معين. فلم يكن لموسى(ع) خيرة في اختيار ا المكان ولا سنة ميلاده ولا الناس الذين يحيطون به ولا أباه ولا أمه. إن الله هو الذي خلق كل واحد من هؤلاء وقدره. وقد أشار الرسول الكريم، صلى الله عليه وسلم، إلى هذه الحقيقة وذلك في قوله:"كل شيء بقدر حتى القدرة والعجز" (مسلم).

إن التأمل في هذه الأحداث يبين لنا كيف ترتبط كل لحظة من حياتنا بقدرنا المكتوب. كما تحفز قصة موسى وما تضمنته من أمثلة عديدة، المرء إلى تأمل

معنى وملابسات حياته، وذلك أن الله يذكرنا من خلال قصة موسى وتفاصيلها المتنوعة أن حياة الإنسان والكون وما حوى تجري على قدر الله.

كما ساق القدر موسى(ع) طافئا مع تيار النيل، فقد ساق كذلك فرعون وأهله إلى الموقع الذي عثروا فيه على موسى(ع). وتفيدنا الآيات المتعلقة بهذا الموضوع أن آل فرعون تصرفوا بذات الطريقة التي أطلع الله عليها أم موسى، وذلك أنهم التقطوا موسى(ع) وكفلوه دون أن يعلموا ما يخبئه لهم المستقبل:

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ. وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٢٨: ٨-٩).

وهكذا عثر آل فرعون على موسى(ع) واتخذوه ابنا لهم وتوسموا فيه النفع وهم غافلون تماما عما سيجري بينه وبينهم في المستقبل. وفي غضون ذلك، كانت أم موسى قلقة على وليدها ولا تدري ما حدث له. لكن الله أنزل عليها سكينته وبشرها بالفرج:

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٨:١٠-١٣).

عاف موسى أثداء جميع المرضعات التي جلبها له آل فرعون، وذلك لأن

الله قدر له أن يطعم لبن أمه فقط، فلم يجد آل فرعون بدا من رده إلى أمه، وهنا يتجلى لطف قدر الله.

يتبين لنا من قصة موسى(ع) أن الله قد يخلق أوضاعا تبدو صعبة في ظاهرها ولا مخرج منها، لكن هذه الأوضاع التي تكرهها النفوس وتضيق بها زرعا قد تستحيل إلى نعم وبركات. وفي قصة موسى(ع) ما يؤكد ذلك: أم يدفعها الخوف على حياة ابنها من شر فرعون وجنوده إلى إلقائه في النهر، فتتبنى هذا الطفل أقوى أسرة في البلاد ثم تعيده في نهاية المطاف إلى أسرته لأنه رفض التقام أثداء المرضعات اللائي جلبن له. إن كل واحد من هذه الأحداث معجزة بذاتها، معجزة تبين لطف قدر الله وكماله. إن المؤمن يوقن أن كل حدث في حياته سينتهي إلى خير بوجه من الوجوه. وكما يتضح من المثال السابق، فقد يهيئ الله لنا هذه البركات في تضاعيف ظروف لا يخطر على بالنا أبدا أن ظاهرها الكالح ينطوي على باطن مفعم بالرحمة والخير.



موسى(ع) يهرب من مصر

يحكي القرآن عن الحادثة التالية التي وقعت لموسى(ع) في حياته:

﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ (٢٨: ١٥).

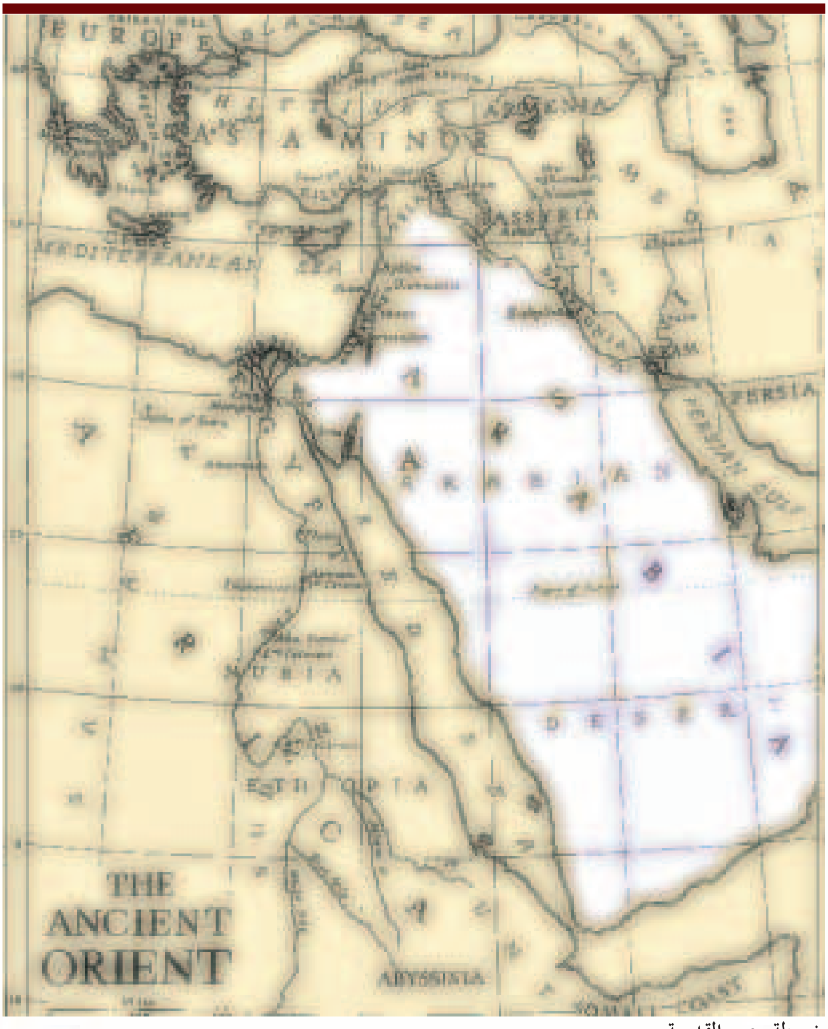
تنبئنا هذه الآية أن موسى(ع) شهد نزاعا بين رجل من بني إسرائيل وآخر مصري، فقرر، قبل أن يلم بخلفية النزاع، أن يناصر الرجل الذي من شيعته. وبعد عراك قصير خرّ المصري صريعا متأثرا بوكزة وجهها إليه موسى. لم يكن موسى(ع) يريد قتل المصري فندم وأدرك فداحة الخطأ الذي وقع فيه ووصفه بأنه من "عمل الشيطان". والشاهد الأخلاقي في هذه القصة هو أن على الإنسان أن يتوخى العدل في تعامله فلا يناصر مدفوعا بوشيجة القربى فقط.

والحق أن التحيّز الأعمى والتعصب للأقربين هو الذي جر الكراهية والحروب على بني البشر منذ فجر التاريخ وإلى يوم الناس هذا. إن هوس الإنسان بانتمائه إلى أهله وقبيلته ورفقائه وأبناء جنسه وتنكبه سبيل الحق والعدل بسبب ذلك، هو الذي أذكى ويُذكي نيران جميع الصراعات والعنف والمآسي التي عرفها البشر قديما وحديثا. لكن موسى(ع) أدرك من فوره أن مشاعر العصبية التي انتابته كانت

من إيحاء الشيطان، فسارع إلى التوبة منها وطلب من الله الغفران. والآيات التالية تطلعنا على السلوك الرفيع والموقف السامي الذي أبداه موسى عليه السلام:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ (٢٨: ١٦-١٧).

أقر موسى(ع) بأنه غير محق في مناصرته للإسرائيلي لا لشيء سوى أنه من



خريطة مصر القديمة

قبيلته. ونسبة لفشو روح التعصب والتحيز هذه في أوساط المصريين في ذلك الوقت، فثمة احتمال قوي أن يحاول ذوو المصري القتيل الأخذ بثأره. ولذلك تملك الخوف موسى:

﴿ **فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ** ﴾ (٢٨: ١٨).

أدرك موسى أنه لا مقام له **في** دولة فرعون، فبات ليلته تلك خائفا يترقب ويحذر أن تمتد إليه يد فرعون وقومه بالأذى. وفي اليوم التالي وقعت حادثة أخرى حكتها الآية آنفة الذكر، إذ استغاث ذات الرجل الذي ناصره موسى بالأمس طالبا نصرته ضد غريم مصري آخر. لكن موسى لم يشأ أن يقع ثانية في خطأه الأول، فرفض مناصرته هذه المرة. فما كان من الرجل إلا أن انقلب على موسى وطفق يكيل له الانتقادات والاتهامات مشيرا إلى حادثة القتل التي ارتكبها موسى في اليوم السابق:

﴿ **فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ** ﴾ (٢٨: ١٩).

وعلى أية حال، فقد وجه المصريون إلى موسى(ع) تهمة القتل رغم أنه فعل ذلك **خطأً**. وفي غضون ذلك كان فرعون وملأه يتحاورون بشأن العقوبة التي يجب أن تنزل بموسى(ع) ، واقترح بعضهم قتله بالمصري. وكان هناك رجل

سمع بمؤامرة القصر التي **تحاك** ضد موسى فجاء مسرعا **اليه** وحذره مما يبيت له، فقرر موسى(ع) الهرب من مصر فرارا من بطش فرعون:

﴿ وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢٨: ٢٠-٢١).

إن هذه الحقائق التي يحيكها القرآن عن حياة موسى(ع) تعطينا أيضا فكرة عن **شخصيته**. إذ يبدو أنه كان سريع الانفعال، إذ انحاز دون ترو للإسرائيلي وضرب المصري فقتله دون أن يقصد ذلك. ثم نراه يهرب من مصر خوفا على نفسه. لكن بعد محاورة الله له تعلم موسى(ع) أن لا يخشى إلا الله وأن لا يلوذ بأحد سواه، وفي هذا تبيين لمنهج الله في تقوية شخصية عبده.

هروب موسى(ع) إلى مدين وإقامته بها

ترك موسى(ع) وراءه فرعون وقومه وخرج ميمما شطر بلاد مدين. ومدين إقليم يقع بين صحراء سيناء في شرق مصر والطرف الجنوبي من دولة الأردن الحالية. وعند أحد موارد الماء بمدين وجد موسى(ع) فتاتين كانتا تنتظران تفرق الرعاة عن البئر لتسقيان قطيعهما. ولأن موسى(ع) كانت تبدو عليه سيماء الورع والأمانة لم تجد الفتاتان حرجا في الاقتراب منه. أخبرت الفتاتان موسى(ع) أنهما لا تودان الاختلاط بالرجال وأن كبر سن أبيهما هو الذي أضطرهما إلى رعي القطيع، فرق موسى(ع) لهما وسقى لهما. يقول الله تعالى حكاية عن هذه الواقعة:

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ. فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (٢٨: ٢٣-٢٤).

تطلعنا هذه الآيات على ما توفرت عليه شخصية موسى(ع) من شيم الخير والأدب. فقد اقترب من بنتين غريبتين وساعدهما ونال احترامهما. كما نفهم ضمنا أن سلوك الرعاة الذين كانوا عند البئر كان على النقيض تماما من سلوك موسى(ع)،

ويتضح ذلك من اجتناب البنتين لهم وتفضيلهما الاقتراب من موسى(ع). فالظاهر أن أؤلئك الرعاة، والله أعلم، كانوا على جانب كبير من **سوء** الخلق والفظاظة وبشاعة المظهر. ويحسن بنا هنا أن ننوه إلى أن المسلم ينبغي أن يتجافى عن سيىء الخلق والسلوك وأن يتأسى بأخلاق أفاضل البشر كموسى عليه السلام والذي أظهر بتعامله مع البنتين ما انطوت عليه نفسه من خلق كريم وأدب جم واستقامة وعفة. كما يجدر بنا أن نشير إلى أن تصرفات موسى (ع) كلها كانت تنبئ عن خضوعه التام وانقياده الكامل لله عز وجل. ومن علامات ذلك أنه ترك أحبابه بمصر الأرض التي شب **فيها** وخرج إلى أرض غريبة لا يدري ما يخبيئه له القدر فيها. إلا **أنه** كان مؤقنا بشيء واحد وهو أن حياته لن تعود كما كانت أبدا. وبعد أن سقى للفتاتين جلس تحت ظل شجرة في المكان ثم توجه بهذا الدعاء إلى الله:

﴿ **رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** ﴾ (٢٨: ٢٤).

إن إخلاص المرء في دعائه يظهر في إدراكه لحقيقة أن الله قادر على عمل كل شيء، وأنه المعطي والمانع، وأنه لا ملجأ للعبد إلا إلى ربه وخالقه. ولقد جاء دعاء موسى(ع) في الآية آنفة الذكر في سياق استسلام كامل لله تبارك وتعالى وصدر من قلب مشرق بهذه الحقيقة، فلا غرو أن الله استجاب لموسى(ع) وفتح عليه أبواب رحمته. لقد فتح عطف موسى على البنتين وإحسانه إليهما، أبواب حياة جديدة كل الجدة. وبينما كان جالسا في الظل يستريح جاءته إحدى الفتاتين

تخبره أن آباها يدعوه ليشكره ويكافئه على إحسانه إليهما:

﴿ **فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾" (٢٨: ٢٥)

لقد توجه موسى(ع) بالدعاء إلى ربه يطلب ما عنده من خير فاستجاب الله لدعائه وهيأ له قوما وعشيرة تؤويه وتحميه من المخاطر التي كانت تتهدد حياته. كان موسى(ع) ذا شخصية قوية وأمانة **باديتين** حفزت البنتين على الاقتراب منه لدى مورد الماء كما حفزت إحداهن إلى أن تطلب من والدها استئجاره لما يتمتع به من قوة وأمانة:

﴿ **قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ**﴾ (٢٨: ٢٦).

كانت الفتاة تعبر لأبيها بهذه الكلمات عن ثقتها بموسى. اقتنع والد الفتاة برأي ابنته **فيه** فقرر أن يزوجها إياه. لقد كان لشهامة موسى(ع) **ومروءته** دور كبير في هذا القرار فانبرى والد الفتاة يقدم العرض التالي **له**

﴿ **قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ. قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ** ﴾ (٢٨: ٢٧-٢٨).

قبل موسى(ع) عرض الشيخ الصالح وأقام في بلاد مدين. وهكذا حفظ ال موسى ورعاه في صغره وكبره، وذلك حين أمر ماء النيل فحمله إلى قصر فرعون ثم قيض له مقاما كريما وآمنا في أرض مدين.



وصول موسى(ع) إلى وادي طوى وتلقيه أول وحي إلهي

قبل موسى(ع) شرط أبي الفتاتين وأقام بأرض مدين. وفي نهاية المدة المتفق عليها غادر هو وأهله أرض مدين ميمما شطر مصر. واثناء مرور موسى(ع) **بجبل** سيناء رأى نارا تلوح من بعيد فعزم على التقدم إليها بأمل أن يستفيد منها قبسا يدفئ به أهله أو خبرا يعينه في مسيره:

﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ (٢٨: ٢٩)،

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ (٢٧: ٧)،

﴿ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ (٢٠: ١٠).

إن هذه الحادثة تدل على جانب رائع آخر من شخصية موسى(ع)، وهو أنه كان يهتم بما يجري حوله. فهو يدرك أن كل الحوادث تجري على قدر مرسوم

وكان هذا الإيمان يدفعه دائما إلى الترحيب بمختلف الحوادث والظروف بأمل الاستفادة منها. إن ملاحظته للنار على الجبل وتقييمه للوضع حالة عقلية تليق بالمؤمن اليقظ. كما أن تركه لأهله خلفه في مكان آمن تصرف يشيء بحكمة وهبه الله إياها.



محاورة الله لموسى(ع)

عندما اقترب موسى من موضع النار استقبلته حادثة جليلة، إذ خاطبه الله، وتلقى أول وحي **إلهي**. وقد أشار القرآن إلى هذه الحادثة في قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ (٢٠: ١١-١٤).

كان هذا أول وحي يتنزل على موسى(ع) وقد أخبره الله فيه بأنه قد اصطفاه وخصه بالرسالة، تلك المرتبة التي تتقاصر دونها كل المراتب في الدنيا. وثمة مسألة تستحق أن نتنبه لها هنا وهي مخاطبة الله لموسى(ع) وندائه له. فقد كان الله قريبا من موسى وخاطبه خطابا مباشرا. والحق أن الله على الدوام قريب من عباده وعليه فهو يستطيع مخاطبتهم والاستماع إليهم:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (٥٠: ١٦).

ورغم أننا لا نستطيع سماع صوت الله وذلك لأنه لا يخاطبنا مباشرة إلا أنه دائما قريب منا يسمع كل ما يصدر عنا من قول ولو كان همسا فاترا.

بعد أن أخبر الله موسى(ع) أن الذي يكلمه هو الله، سأله عن عصاه:

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴾ (٢٠: ١٧-١٨).

ولا شك أن الله كان يعلم بما في يد موسى(ع) وأراد أن يرشد موسى(ع) إلى قدرة خالقه فأمره أن يلقي عصاه:

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ (٢٧: ١٠).

استولى الخوف على موسى(ع) حين رأى عصاه تستحيل إلى حية عظيمة. لكن الله أراد بهذه الحادثة أن **يعلمه** أن لا يخشى أحدا سوى الله وأن لا ينقاد إلا إلى خالقه:

﴿ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (٢٧: ١٠)،

"قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾ (٢٠: ٢١).

انصاع موسى(ع) لأمر الله وأخذ عصاه التي كانت إحدى المعجزات التي شهرها موسى(ع) في وجه فرعون. ثم **أعطاه** آية آخرى:

﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ (٢٨: ٣٢).

وكما تنبئنا الآية أعلاه، فقد خرجت يد موسى(ع) بيضاء ناصعة، آية أخرى من الله لنبيه.

ملأت هذه الأحداث جوانح موسى(ع) بالإثارة والرهبة، فأمره الله أن يتجلد

وأن يذهب بهذه الآيات والمعجزات إلى فرعون:

﴿ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ (٢٨: ٣٢).



موسى(ع) يسأل الله
أن يشدد أزره بأخيه هارون

كان رد موسى(ع) على وحي الله دليلا على إخلاصه. فقد صارح ربه بما يعتريه من مشاعر الخوف والتردد وطلب منه التوفيق والهداية. لقد أعرب عن خوفه من أن يقدم فرعون على قتله انتقاما لقتله أحد المصريين. كما ذكر أنه يخشى أن يعجز عن التعبير عن نفسه بلسان مبين أمام فرعون. وسأل الله أن يبعث معه أخاه هارون نبيا وذلك لفصاحة لسانه:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾

(٢٨:٣٣-٣٤)،

﴿ هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً ﴾ (٢٠: ٣٠-٣٤).

وهنا يتضح لنا سبب طلب موسى(ع) من الله أن يجعل أخاه هارون وزيرا له، وهو أن يعينه على ذكر الله. فقد ظن أن وجود شخص آخر بجانبه يعينه على ذكر الله. والحق أن وجود جماعة من المؤمنين تتناصح في الله ويشجع بعضهم

بعضا يبعث النشاط في القلوب ويشحذ الهمم ولهذا يرشد الله المؤمنين في القرآن إلى التوحد والاجتماع. وهذا درس آخر يتعين على المؤمنين استلهامه من قصة موسى عليه السلام.

استجاب الله لسؤل موسى(ع) وأعلمه أنه قد أذن لأخيه هارون(ع) أن يصحبه ويؤازره في إيصال رسالة الله إلى الطاغية فرعون:

﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ (٢٨: ٣٥).

وتنقل آية أخرى ذات الحادثة فتقول:

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴾ (٢٠: ٢٥-٢٩)، **﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾** (٢٠: ٣٥-٣٦).

إذا تأملنا في مطالب موسى(ع) فسنجد فيها إقرار بالضعف ورغبة في توفيق الله وهدايته. وللناس في هذا الدعاء المخلص أسوة حسنة. إن على المرء أن يظهر الإخلاص والتذلل حين يتوجه بالدعاء لخالقه، مقرا بفقره وضعفه أمام ربه الذي بيده ملكوت كل شي. فالله محيط بكل شيء وعالم بكل ما يأتي به الإنسان وما **توسوس** به نفسه ولهذا ليس ثمة حاجة لإخفاء أي شيء عن الله.

قصة موسى(ع) وحقيقة القدر

بشر الله موسى(ع) على جبل سيناء بأنه قد جعل أخاه هارون وزيرا له، ثم ذكره بنعمه السالفة عليه:

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىإِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَىأَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ (٢٠: ٣٧-٤١).

تكشف هذه الآيات عن حقيقة القدر التي يجهلها كثير من الناس. فقد كانت حياة موسى(ع) كلها، منذ طفولته الباكرة إلى وقت تكليفه بالرسالة، تجري وفق خطة سماوية سبق بها القدر. فقد رأينا كيف تضافرت آلاف التفاصيل الدقيقة لتسهل وصول الصندوق الذي يحمل الطفل موسى إلى قصر فرعون، كما سنرى لاحقا كيف أن المراحل الأخرى من حياته لم تخرج البتة من إطار هذا القدر.

فقد رأينا كيف تورط في نزاع مع أحد المصريين ثم فر إلى مدين حيث لقي فتاتين لم يكن بمقدورهما مزاحمة الرعاة لسقاية قطيعهما من فرط احتشامهما، فرق لهما **وسقى** لهما الأمر الذي أكسبه تقديرهما وثقتهما، وقد كافأه الشيخ أبو الفتاتين على صنيعه بأن زوجه من إحداهما لكنه اشترط عليه أن يخدمه ثماني حجج.

غادر موسى(ع) مدين بعد قضاء الأجل مصطحبا معه أهله وفي متصف الطريق رأى نارا فلما أتاها خاطبه الله وأعلمه أنه قد اختاره رسولا إلى فرعون. لقد وقعت جميع هذه التفاصيل وغيرها مما أشار إليه القرآن وفق ما هو مرسوم في القدر لموسى قبل أن يولد. ولم يكن واردا أن تسقط واحدة من هذه التفاصيل أو تقع بشكل مغاير. ولأن حياتنا تشبه فيلما مسجلا على شريط فيديو، فليس من الوارد سقوط أو حذف مشهد واحد من مصير المرء المقدور، مثلما يستحيل حذف مشهد من فيلم سينمائي. إن مصير الإنسان بكل لحظة فيه كل لا ينقص ولا يتغير.

كما تشير الآية المذكورة أعلاه إلى حقيقة أن رحلة موسى(ع) إلى الوادي المقدس طوى قد جاءت في إطار هذا القدر المحتوم:

﴿ **ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى**﴾ (٢٠: ٤٠).

وينبغي أن نولي هذه المسألة اهتماما خاصا. فالقدر المشار إليه هنا ليس مقصورا على موسى فقط. **فولادته** جزء من قدر أم موسى، أي أن تلد موسى(ع) في يوم معين أو حتى في لحظة معينة وكل هذا جزء من قدرها. لكن أم موسى لها هي الأخرى أبوان، أي أنه كان مقدرا لأمها أن تلدها هي، وهذا الوصف ينطبق على والد موسى وبقية أسرته.

فلنتأمل في النزاع الذي دخل فيه موسى(ع) مع أحد المصريين. فقد وقع هذا النزاع في نفس لحظة وصول موسى الى المكان. ولو نظر المرء نظرة مبسطة للأمر لقال: "لو أن النزاع بين اليهودي والمصري كان قد حدث في وقت مختلف

لما شهده موسى(ع) ولسارت الأحداث بشكل مختلف تماما". إلا أن هذا تقييم للوضع غير صحيح، فقد وقع النزاع بين اليهودي والمصري في اللحظة التي كان مقدرا له أن يحدث فيها وتطور على ذات النسق الذي سبق به القدر. وسبب ذلك أن هذا النزاع قد سبق في قدر الله. وهذا الوصف ينطبق على جوانب النزاع الأخرى، مثل سبب النزاع ونصيحة الرجل لموسى(ع) بأن يخرج من مصر لأن فرعون وملأه يأتمرون به. وكذلك الرعاة الذين وجدهم عند مورد الماء في مدين والفتاتين، كل ذلك جزء من هذا القدر المكتوب **له**.

إن رسل الله هم وحدهم الذين يفقهون حقيقة أن كل شيء يحدث وفق كتاب من الله سبق. ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تقل إن أصابك شيء لو أني فعلت كذا لكان كذا ولكن قل قدر الله وما شاء الله فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان" (مسلم).

وحين ننظر إلى جماع هذه النقاط يتبين لنا أن كل شيء في حياة موسى(ع) هو جزء من قدره الذي كتبه الله له. ولو نظرنا بعمق أكثر فسيتضح لنا أن حيواتنا جميعا فصول من قدر واحد. فنحن معرضون في حياتنا لأحداث قضاها الله منذ الأزل، **ومحكومون** بما قدر لنا. إن لحظة موتنا ستكون جزءا من هذا القدر نفسه. والقدر هو في حقيقة الأمر علم إلهي يستوعب الوجود جميعا. فمثلما قدر الله التفاصيل المتعلقة بحياة موسى(ع)، ومن ذلك تلقيه للوحي والرسالة، فقد قدر كذلك جميع التفاصيل المتعلقة بحياة البشر. ومن ذلك أن اطلاعك على هذا

الكتاب وتعرفك على قصة موسى عليه السلام كان في القدر الإلهي قبل مولد موسى(ع). فالقدر وعاء جامع يحيط بكل شيء. وليس لأحد سوى الله تدخل في القدر. (لمزيد من التفصيل في هذا الأمر يرجى الاطلاع على كتاب: اللازمنية وحقيقة القدر، وكتاب: الأبد قد بدأ بالفعل، للمؤلف)



تبليغ رسالة الله إلى فرعون وأمثل الطرق لعمل ذلك

أوصى الله موسى وهارون(**عليهما السلام**) قبل قدومهما على فرعون أن لا يغفلا عن ذكره:

﴿ **اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي** ﴾ (٢٠: ٤٢).

وأمرهما أن يأتيا فرعون، حاكم مصر. وأبان الله لهما أن فرعون طاغية متجبر وخصم، لكن مع ذلك، أوصاهما بأن يخاطباه بأسلوب حسن رقيق:

﴿ **اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** ﴾ (٢٠: ٤٤-٤٣).

وكما ترشد الآية فإن الكلام اللين والأسلوب الرقيق طريقة فعالة في الدعوة ولا ينبغي للدعاة أن يزهدوا فيها. وقد وردت في كثير من آي القرآن الإشارة إلى أهمية الكلام اللين وأنه أصل من أصول الدعوة.

بعد هذا الأمر والتكليف الإلهي لموسى وهارون(**عليهما السلام**) كاشف موسى(ع)ربه بحقيقة خوفه من ضخامة التكليف، وصارحه بخوفه من أن تمتد إليه يد فرعون بالأذى:

﴿ **قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى** ﴾ (٢٠: ٤٥)،

﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ** ﴾ (٢٨: ٣٣).



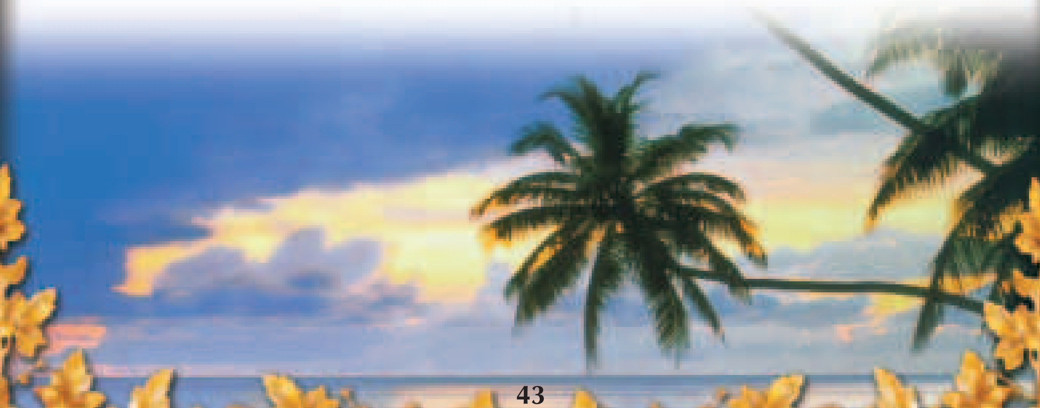
كان حكم فرعون يتباهى بحكمه القائم على القسوة والظلم

وهنا يذكر الله موسى(ع) مرة أخرى أنه معه مطلع على كل شيء. وفوق ذلك، أمر الله موسى وهارون(**عليهما السلام**) أن يذهبا إلى فرعون ويطلبا منه إطلاق سراح بني إسرائيل والسماح لهم بمغادرة مصر:

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾ (٢٠: ٤٧).

إنه مما يحسن التنويه إليه هنا أن فرعون ليس هو وحده الذي يتعرض للاختبار بل الأمر اختبار لموسى(ع) أيضا. لقد خشي موسى(ع) أن يتعرض للقتل على يد فرعون. لكن الله لم يطلب **منه** الذهاب لفرعون بغرض التحية والمجاملة، بل أمره أن يذهب إلى فرعون ويطلب منه فك بني إسرائيل من الأسر والسماح لهم بمغادرة مصر. لا جرم أن تحدي طاغوت تدين له البلد قاطبة وتألهه قلوب أهلها مهمة تنطوي على خطر عظيم. وأخطر من ذلك مصارحة فرعون بأنه على ضلال ثم مطالبته بتحرير بني إسرائيل. ومع ذلك، ولعلمهما أنهما بعين الله يكلؤهما ويرعاهما، شرع موسى وهارون(**عليهما السلام**) ينفذان أمر الله بكل الثقة واليقين الذي أفرغه الله عليهما. وقد ذكرهما الله بهذه الحقيقة وأوصاهما أن لا يخافا:

﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ (٢٠: ٤٦)



فساد منطق فرعون

إلى جانب الوحي الذي شرف الله به موسى(ع) عند جبل سيناء، فقد وهبه أيضا حكمة عظيمة. فقد **علمه** الله هناك أمرين اثنين هما: الإيمان بالقدر والتوكل على الله. فأيقن موسى(ع) أن حياته كلها لم تخرج ولن تخرج عن نطاق القدر الذي قضاه الله له. كما أدرك أنه لا ينبغي له أن **يخشى** بأس فرعون وأن يتوكل على الله ويستشعر معيته ويطلب عونه وتوفيقه. بهذه الروح انطلق موسى وهارون(**عليهما السلام**) إلى فرعون وملأه الذين أشار إليهم القرآن بعبارة: "قوما مجرمين":

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ (١٠: ٧٥).

حكى القرآن الحوار الذي دار بين موسى(ع) وفرعون. ولو أنعمنا النظر في ردود فرعون وأقواله لموسى فسيتبين لنا فساد منطقه وسخافة حججه. كما يظهر لنا من عبارات فرعون أنه أراد إفحام موسى(ع) وإدانته بدلا من الاستماع لأقواله. ولهذا سعى فرعون إلى كسب تأييد المحيطين به وفرض منطقه المعوج على الآخرين. وقد جرى الحوار بين موسى(ع) وفرعون على النحو التالي:

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ

السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ (٢٠: ٤٩-٥٥).

لم ينظر فرعون إلى رسالة موسى(ع) بعقل متفتح وضمير نقي، وقيمها بدلا من ذلك انطلاقا من طريقة تفكيره الموروثة والتي تعود جذورها إلى دين آبائه وأسلافه. إن فرعون إله في دينه الأسطوري وهو أبعد ما يكون عن الإقرار بوجود الله سبحانه وتعالى:

﴿ فَلَمَّا جَاءهُم مُّوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ (٢٨:٣٦)

كما تبين الآية المذكورة أعلاه، فقد ظن فرعون وملأه أن موسى(ع) إنما يرمي بدعوته التوحيدية إلى الاستيلاء على السلطة وإلغاء النظام السياسي الفرعوني الموروث. فالدين الفرعوني الموروث يمنح فرعون ومن يحيطون به امتيازات واضحة ولذلك فإن تغيير هذا الدين يعني ذهاب السلطة من بين يدي فرعون وانتقالها إلى موسى(ع). ولذلك اعتقد فرعون وملأه أن موسى(ع) يريد العلو في الأرض تماما كما فعل فرعون. إن هذا الفهم الضيق يعبر عنه بصدق رد فرعون **وملأئه** على موسى وهارون:

﴿ قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٠: ٧٨)



رسم مصري قديم يصوّر استعباد بني إسرائيل في ظل حكم فرعون

لكن قول فرعون **وملأئه:**

﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ﴾

إنما هو محاولة غير أمينة للنيل من موسى وأخيه(**عليهما السلام**) وتلطيخ سمعتهما.

إن هدف موسى(ع) أرفع من الرغبة في حكم مصر، وكل الذي طلبه من فرعون هو أن يرسل معه بني إسرائيل تلك الأمة المستعبدة التي كانت ترزح في نير القهر والاضطهاد:

﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

(٧: ١٠٥-١٠٤).

ولم يكتف فرعون برفض طلب موسى، بل حاول اتباع أساليب أخرى للنيل منه، ومن ذلك محاولة فرعون **إيذائه** نفسيا وذلك بتذكيره بفضل آل فرعون عليه حين أنقذوه من النهر وتولوا تربيته، وأن **تصرفه** وخروجه على سلطة فرعون جحود وإنكار لفضل فرعون عليه. كما حاول ابتزازه بذكر حادثة **قتله** لأحد المصريين.

لكن رد موسى(ع) على جميع هذه الترهات والإساءات جاء معبرا عن إيمانه الصادق العميق بالله وتصديقه بالقدر وما يتصل به من ملابسات:

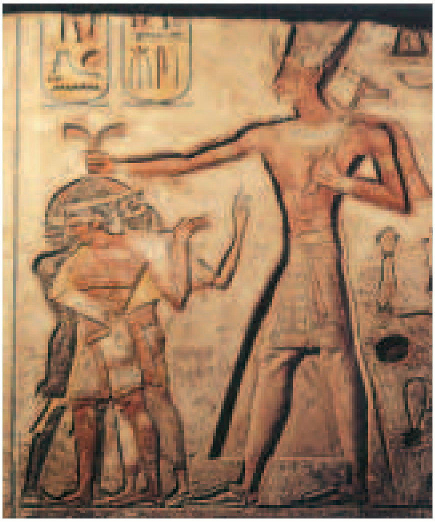
﴿ **قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ (٢٦: ١٨-٢١)

أبان موسى(ع) لفرعون أن ترعرعه في قصره ليس نعمة وإنما هو نقمة سببها جبروت فرعون وظلمه:

﴿ **وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ (٢٦: ٢٢).

فرغم كل التردد الذي شعر به موسى(ع) من قبل، نراه يقدم رسالته إلى فرعون وبطانته بكل قوة وصراحة موقنا بأن الله معه يكلأه ويرعاه. وكان فرعون قد سأل موسى(ع) بادئ ذي بدء عن ربه:

﴿ **قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ**﴾ (٢٦: ٢٣-٢٦).





رسم يظهر فرعون وهو
يفصل في أمر عبيد جلبوا إلى مجلسه

وكان موسى في تعقيبه على رد فرعون يوضح أن دين آباء فرعون باطل طالما أنهم كانوا على ذات الظلم والجور الذي عليه فرعون. كما ذكر موسى(ع) فرعون أن الله رب آبائه أيضا. وهنا أعيت فرعون الحجة وأفحم فطفق يكيل الشتائم والتهديدات لموسى:

﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ (٢٦: ٢٧-٢٩).

وكما يشير سياق الحوار فقد حشرت توضيحات موسى(ع) القوية وحججه المسكتة فرعون في زاوية ضيقة مما دفعه إلى اتهام موسى(ع) بالجنون. وقد هدف فرعون بذلك إلى إبطال مفعول تأثير موسى القوي على الحاضرين. إلا أن صراحة موسى وقوة منطقه قد ملأت فرعون غضبا **فهدده** في نهاية الحوار بالسجن إن

اتخذ دينا آخر سوى دين فرعون. ويعكس هذا السلوك ما كانت عليه شخصية فرعون من قسوة وفظاظة.

عند ذلك أعلن موسى(ع) أنه قد جاء بمعجزات تشهد بصدق نبوءته، وعرض على الحاضرين المعجزتين اللتين أعطاه الله إياها:

﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ ﴾

(٢٦: ٣٣-٣٠).

إلا أن فرعون وملأه ظنوا أن معجزتي موسى(ع) ليستا سوى ضرب من السحر، وحاولوا التظاهر بعدم التأثر بالمعجزتين وتشاوروا فيما بينهم قائلين:

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ (٢٦: ٣٤-٣٥).

إن هذه الآيات تتحدث عن عقلية من ينكرون الحق البيّن. ونجد في كثير من القصص التي ساقها القرآن أمثلة شتى لأشخاص مثل فرعون **وملأئه** تظهر حججهم منطقا سقيما. ولا تقتصر هذه العقلية التي تتشبث بدين الآباء والأجداد وتجحد الحق رغم جلائه، في فرعون **وملأئه** فقط، بل إن التاريخ **مملوء** بقصص المبطلين الذين يتذرعون بحجج واهية ويجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق. ويتحدث القرآن الكريم عن عقلية المتغطرسين المستكبرين على النحو التالي:

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ

كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ﴾

(٧: ١٤٦).

لقد آثر فرعون وملأه سبيل الجحود والشر وتنكبوا سبيل الهدى والخير. وقرروا، رغم هذه المعجزات، منازلة موسى(ع) وتحديه، وطفقوا يؤلبون عليه خصومه من السحرة:

﴿ قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ (٧: ١١١-١١٢).

زعم فرعون أن المعجزات التي جاء بها موسى(ع) ليست سوى أعمال سحرية واعتقد أنه يستطيع إبطالها بسحر مثلها ولذا خطط لإلحاق الهزيمة **به** واستعادة هيبته وسيطرته. كان بوسع فرعون قتل موسى وهارون(**عليهما السلام**) لكنه عمل بنصيحة بطانته طمعا في نصر أعظم وأبقى. لكن الله قدر أن تلحق بفرعون هزيمة مجلجلة. وفوق ذلك جاءت هزيمة فرعون من حيث لم يحتسب.

لأن فرعون كان واثقا من أنه سيخرج فائزا من المواجهة فقد منح موسى(ع) حق تحديد مكان وزمان المنازلة:

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى قَالَ مَوْعِدُكُمْ

يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ (٢٠: ٥٧-٥٩).

اختار موسى(ع) "يوم الزينة" لتمكين الناس جميعا من شهود المنازلة بينه وبين فرعون. وهو في الحقيقة اختيار حكيم وموفق، إذ ستتيح هذه الطريقة للناس جميعا التعرف على **رسالته** ومعاينة هزيمة فرعون وسحرته. وقبل فرعون الموعد الذي اختاره موسى(ع):

﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴾ (٢٠: ٦٠-٦٤).



ألقاب حكام مصر في القرآن

لم يكن موسى(ع) النبي الوحيد الذي عاش في مصر القديمة، فقد عاش **فيها** قبله نبي الله يوسف عليه السلام. وعند قراءتنا لقصتي موسى ويوسف(**عليهما السلام**) في القرآن نلاحظ شيئا يستحق التنويه. فقد استخدم الله كلمة "ملك" عند الإشارة إلى حاكم مصر في زمن يوسف:

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ ﴾ (١٢: ٥٤).

أما في زمن موسى فقد أشار القرآن إلى حاكم مصر بكلمة "فرعون": "وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا ﴾ (١٧: ١٠١).

تشير المصادر التاريخية الموجود حاليا إلى أسباب اختلاف ألقاب هذين الحاكمين المصريين. ففي مصر القديمة كانت كلمة "فرعون" تشير في الأصل إلى القصر الملكي. ولم يكن الحكام يحملون هذا اللقب في عهد الممالك المصرية القديمة. وكانت كلمة "فرعون" قد استخدمت كمرادف لكلمة "ملك مصر" في عهد المملكة المصرية الحديثة (تبدأ هذه المملكة بالأسرة الثامنة عشرة، ١٢٩٢-١٥٣٩ ق .م)، وفي عهد الأسرة الثانية والعشرين (استخدمت كلمة فرعون لتدل على التقدير والاحترام.

وهنا تتجلى ثانية مظاهر الإعجاز في القرآن الكريم. فلأن نبي الله يوسف(ع) قد

عاش في زمان متقدم جدا على زمان المملكة الجديدة، فقد أشار القرآن إلى حاكم مصر في زمنه بكلمة "ملك" وليس "فرعون". ومن ناحية أخرى، فقد عاصر موسى(ع) المملكة الجديدة ولذلك وردت الإشارة إلى حاكم مصر في زمنه بكلمة "فرعون". ولا جرم أن هذا التفريق والتمييز يدل على علم بتاريخ مصر القديمة. لكن تاريخ مصر القديمة نسي تماما بحلول القرن الرابع الميلادي وذلك لأن لغز الكتابة الهيروغليفية لم يفك إلا في القرن التاسع عشر الميلادي، ولهذا لم تكن تتوفر أي معلومات عن تاريخ مصر القديمة خلال فترة تنزل القرآن، وهذه الحقيقة برهان على أن القرآن كلام الله.



المواجهة بين
موسى وسحرة فرعون

تقاطر السحرة إلى فرعون من كل فجاج مصر وجاءوا لمواجهة موسى(ع) بسحرهم. كان فرعون واثقا من النصر. أما السحرة فقد كانوا يمنون أنفسهم بجوائز ثمينة لقاء تغلبهم على موسى:

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ وَجَاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالْواْ إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإَنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (٧: ١٢٢-١١٤).

كان فرعون يريد اغتنام فرصة المواجهة لتعزيز سلطته في مصر، في حين ظن السحرة أنهم قد شرفوا بالقرب من فرعون الأمر الذي يتيح لهم الحصول على فوائد معينة. لقد جيء بأمهر السحرة في مصر في ذلك الزمان لمواجهة موسى(ع) **وطلبوا منه** أن يحدد من تكون له ضربة البداية:

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ (٢٠: ٦٥-٦٦).

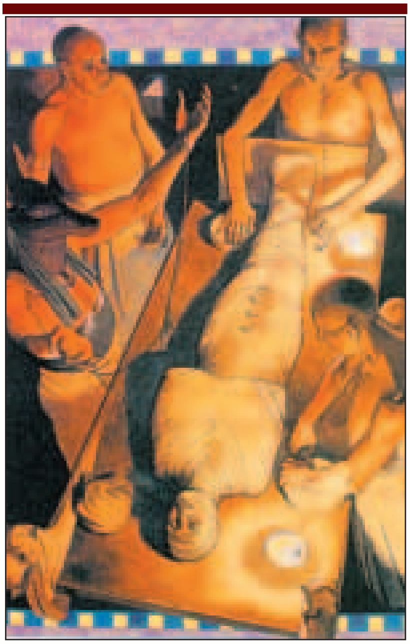
عندما قدم السحرة عروضهم السحرية سحروا أعين الناس وبدأت حبالهم وعصيهم وكأنها حيّات عظيمة تتحرك وتسعى. وثمة نقطة تستحق أن نتوقف عندها هنا وهي أننا نجد في الآية السابقة تعبير "يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى" وهي صيغة تدل على أن حركة العصي والحبال لم تكن حركة حقيقية ولكن هكذا كان يخيّل لأنظار المشاهدين. وفي آية أخرى ترد إشارة إلى الطبيعة الوهمية لهذه الحادثة وذلك في قوله تعالى:

﴿ قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ (٧: ١١٦).

أي أن سحرة فرعون حازوا بتمويههم على إعجاب الحاضرين، وناصروا فرعون بطلاسمهم السحرية التي أقدموا عليها "بعزة فرعون". وقد كافأهم فرعون

اعتاد سحرة فرعون على تقديم عروضهم في المناسبات الدينية في مصر. الرسم أعلاه يظهر السحرة أثناء أحد طقوس تجهيز المموميات





يتولى سحرة فرعون أمورا تتراوح بين التنجيم إلى الطب. وكانوا يستغلون مكانتهم لبسط نفوذهم على جماهير الشعب ولترسيخ سلطة في فرعون. وفي الصورة رسم يبدو فيه السحرة وهم يحملون العالم

على ذلك بأن منحهم جوائز مالية. أي باختصار كانت العلاقة بين الطرفين نفعية.

كان السحرة يعلمون وهم يواجهون موسى(ع) أن فرعون لم يكن يملك أي قوة إلهية، لكنهم قدموا له خدماتهم تزلّفا إليه وطمعا في الكسب المادي. فعلوا ذلك وهم موقنون بالظهور على موسى(ع) وقد عبروا عن هذه الثقة بقولهم:

﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ (٢٦: ٤٤).

و كما حكى القرآن فقد استطاع السحرة، بخداعهم وتمويههم، أن يؤثروا على الحاضرين بما في ذلك موسى وأن **يلأوهم** خوفا، وذلك لما رأى ورأوا تحول عصي السحرة وحبالهم إلى ثعابين



تموج وتضطرب. لكن الله ذكر موسى(ع) **ألا** يخاف:

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ (٢٠: ٦٧-٦٩).

فالتفت موسى(ع) من فوره، وقد سكنت نفسه واطمأنت بذكر الله، إلى السحرة وخاطبهم قائلا لهم أن ما جاءوا به ليس سوى سحر وأن الله سيبطله بحوله وقوته:

﴿ فَلَمَّا أَلْقَواْ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١٠: ٨١).

ثم ألقى موسى(ع) عصاه فحدث شيء ارتاعت له قلوب السحرة. فقد طفقت **عصاه** تلقف وتبتلع الحيّات المتخيلة التي أطلقها السحرة:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ ﴾ (٧: ١١٧-١١٩).

كان فعل موسى(ع) معجزة إلهية حقيقية في حين كان عمل سحرة فرعون **تمويهاً وخداعاً كاذباً**. وهكذا تغلب مكر الله وكيده على مكر وكيد سحرة فرعون، وكان الفوز من نصيب موسى وأيقن جميع الحاضرين أن وعد الله حق. لم يترك الله موسى(ع) وحده **بل** مكنه عبر هذه المعجزة من التغلب على أكبر طاغية في ذلك الوقت.

إيمان السحرة بدين موسى(ع)

كانت نتيجة المواجهة بين موسى(ع) والسحرة على غير ما توقع فرعون والسحرة والحضور. فقد حلت الهزيمة بالسحرة رغم غطرستهم وثقتهم بأنفسهم. وفوق ذلك، فإن هذه الهزيمة الساحقة كانت قد حدثت أمام **أبصار** أهل مصر. وكان وقع الهزيمة أكبر في نفوس السحرة لأنهم كانوا يدركون أن سحرهم لا يمت إلى الحقيقة بصلة وكل ما في الأمر أنهم كانوا يحاولون مخادعة الناس وإيهامهم أن حكم فرعون مؤيد بقوة إلهية. لكن معجزة موسى(ع) قدمت شيئا مختلفا. ولهذا أدرك السحرة أن عمل موسى(ع) ليس تمويها ولا كيد ساحر. فقد لقفت **عصاه** إفكهم وباطلهم. ولهذا أدركوا أن **عمله** معجزة حقيقية وشاهد على وجود الله وبرهان على تأييده لموسى فآمنوا بربهم:

﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾

(٧: ١٢٠-١٢٢).

في تلك اللحظة انقلب النظام برمته رأسا على عقب، وكُبت فرعون الذي كان يمني نفسه بالتغلب على موسى، ورأى بأم عينه السحرة وهم يسلمون لموسى(ع) ويؤمنون به على بصر وسمع الناس. لم يكن بوسع فرعون أن يقبل تصرف السحرة. فهو، حسب منطقه المنكوس، المالك الأوحد لأرض مصر ومما فيها ومن فيها، وكان يرى أنه الجهة الوحيدة التي بيدها سلطة قبول أو رفض تحول الناس إلى عقيدة أخرى:

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَـذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٧: ١٢٣).

حاول فرعون، مدفوعا بتفكيره المشوش، أن يفسر ما حدث تفسيرا مغايرا وأن يصرفه إلى معنى آخر سوى المعنى الواضح البديهي. فقد رأى الناس معجزة بينة تقع أمام أنظارهم أعقبتها هزيمة مجلجلة حلت بسحرة فرعون فأقدموا إثرها على الإيمان بموسى(ع) والتصديق برسالته. لقد كان حريا بفرعون في ذلك الوقت أن يقر بالمعجزة التي حدثت ثم يعلن إيمانه بالهدى الذي جاء به موسى(ع)، لكنه بدلا من ذلك تعلق بتفسيرات زائفة ولفق سيناريوهات لم يكن هو نفسه مقتنعا بصحتها. وهكذا أقنع فرعون نفسه أن موسى(ع) والسحرة متواطئون من



أجل السيطرة على السلطة في مصر. بل زعم أن موسى(ع) هو المعلم الذي لقّن السحرة فنون السحر:

﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ (٢٠: ٧١).

هكذا رأى فرعون آيات الله البينة القاطعة ولكنه آثر المغالطة والمماحكة والجحود. والحق أن سلوك فرعون شبيه بسلوك منكري الحق في كل زمان ومكان، الذين يصرون على كفرهم وجحودهم رغم وضوح الآيات والبراهين التي تقدم إليهم. إن هؤلاء يتشبثون بأي نوع من الوهم لتبرير جحودهم. وما من مجتمع إلا خلا فيه مكذبون **كثيورون** سرت إليهم عدوى العناد الفرعوني الجاحد لوجود ووحدانية الله. ومع هذا أدرك فرعون أن عناده لن ينجيه، فلقد هزت الهزيمة التي حلت بسحرته وتحولهم إلى دين موسى(ع) أركان سلطته، فرأى أنه يتحتم عليه قلب الأوضاع وإعادة سلطته إلى سابق قوتها ومجدها. ولتحقيق هذا الهدف لجا فرعون إلى العنف مهددا السحرة بالعذاب والقتل. لكن السحرة الذين أيقنوا بصدق موسى(ع)، سلموا أمرهم إلى الله. ونلمح في آيات قرآنية كثيرة مدى قوة إيمان السحرة ومتانة عقيدتهم:

﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ (٢٠: ٧١-٧٣)،

﴿ قَالُواْ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝ تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ (٧: ١٢٥-١٢٦)،

"**قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (٢٦: ٥٠-٥١).

وكما تبين الآيات أعلاه، فإن السحرة الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم لم يتضعضعوا ولم يهنوا أمام تهديدات فرعون وبطشه وذلك ليقينهم أن قتلهم يأخذهم إلى الله خالق كل شيء، كما كانوا يطمعون في أن يغفر الله لهم ما سلف منهم من كفر وشرور ومعاندة للحق.

أصبح حكم فرعون بعد تلك الحادثة أكثر شرا وأمعن في الظلم وحاول إخضاع الناس بقوة السلطان وجبروته. فكان من نتيجة ذلك أن تهيب الناس، ما خلا طائفة صغيرة من شباب بني إسرائيل، اتباع موسى(ع). هؤلاء الشباب وحدهم قد تجاسروا على السير في خطا السحرة على طريق الإيمان. أما غالب أهل مصر فلم يخضعوا لحكم الله ولم يخشوه وأبوا دينه الذي أنزل. ويحكي القرآن هذا



الموقف على النحو التالي:

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (١٠: ٨٣).

كانت زوجة فرعون من بين القلة التي آمنت بموسى(ع) وصدقت برسالته. لم تتجرأ هذه المرأة الكريمة التي عاشت حينا من الدهر في كنف العز الفرعوني على التضحية بكل هذه المزايا وحسب، بل جعلت نفسها هدفا لبطش وعذاب فرعون. والحق أن تحولها هذا دليل على صدق وعمق إيمانها. وقد أشار القرآن إلى زوجة فرعون كمثال للمرأة المؤمنة:

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٦٦: ١١).

إن في صدق إيمان زوجة فرعون بالله قدوة جليلة للمسلمين جميعا. فقد زهدت هذه المرأة المؤمنة في نعيم الدنيا الزائل وآمنت أن الدار الآخرة هي الحيوان ودعت الله أن يبني لها بيتا في الجنة. ولا جرم أن في هذه الدعوة المخلصة الخارجة من قلب خالطته بشاشة الإيمان بالله واليوم الآخر عبرة للمؤمنين في كل زمان ومكان.

مؤمن آل فرعون

لم تزد المعجزات التي جاء بها موسى(ع) فرعون وملأءه إلا عنادا ومكابرة وإصرارا على المقاومة زاعمين أن موسى(ع) ليس سوى ساحر عليم كما شرعوا يخططون لإخضاعه وأتباعه لألوان من العذاب والقهر:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاء الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ (٤٠: ٢٣-٢٧).

عقد فرعون العزم على قتل موسى(ع) وذلك للحؤول دون تمكن الأخير من إرساء قواعد نظام جديد في أرض مصر على حساب سلطة فرعون ومصالحه. وذلك لأن تعاظم نفوذ موسى(ع) يعني أن فرعون لن يستطيع حكم أهل مصر بالكيفية التي يريد. ولهذا حاول فرعون تبرير قتل موسى(ع) بأن زعم أن نوايا موسى(ع) شريرة. وفي هذه الأثناء خرج رجل من آل فرعون وأعلن تأييده لموسى(ع)

واعترض على قسوة وظلم فرعون:

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ (٤٠: ٢٨-٣٥).

لم يؤثر هذا التحذير الذي صدع به مؤمن آل فرعون في قلب فرعون الذي ران عليه الجحود وأعماه الكبر. كما حاول فرعون التقليل من قيمة كلام هذا الرجل المؤمن بأن سخر منه ومن تحذيره وألتفت إلى مساعده هامان وخاطبه

بلهجة تنضح سخرية قائلا:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾

(٤٠: ٣٧-٣٦).

لقد أراد فرعون استعادة السيطرة على الوضع عن طريق السخرية ولم يع أهمية رسالة موسى(ع) وفحواها المتمثلة في وحدانية الله. لقد ظن فرعون أن موسى(ع) لمّح إلى أن الله موجود في الهواء العلوي وأدرك أنه لن **يرى** شيئا إذا صعد إلى هناك. وعلى هذا الأساس بنى فرعون تكذيبه لرسالة موسى(ع). إن سوء فهم فرعون هذا دفع الرجل المؤمن الذي كان يخفي إيمانه إلى توضيح مفهوم وجود الله والدار الآخرة لفرعون وقومه وحذرهم من العذاب المقيم الذي ينتظر الكافرين وأهاب بهم أن يقتفوا أثره على طريق الإيمان:

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى



﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ (١١: ١٠٠)



الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ (٤٠: ٣٨-٤٥).

لم يبال فرعون وملأه بتحذيرات هذا الرجل المؤمن فاستحقوا ما كان ينتظرهم من عذاب أليم جزاء وفاقا لجحودهم وتعاليهم.

ورود اسم "هامان" الذي

جاء به القرآن في الكتابات المصرية القديمة

تكشف بعض المعلومات التي يتضمنها القرآن عن مصر القديمة عن حقائق تاريخية كثيرة لم تكتشف إلا مؤخرا. وتشير هذا المعلومات أيضا إلى أن ثمة حكمة إلهية وراء كل كلمة استخدمت في القرآن. وهامان اسم لشخص آخر ورد ذكره في القرآن إلى جانب فرعون. وقد جرت الإشارة إلى هامان بوصفه أحد أقرب المقربين من فرعون في ست آيات قرآنية متفرقة. لكن الشيء العجيب هو أننا لا نجد أثرا لاسم هامان في الفصل من التوراة الذي يتضمن قصة موسى عليه السلام. إلا أن الفصول الأخيرة من **التوراة** قد تضمنت إشارة إلى أن هامان كان مستشارا لملك من ملوك بابل ظهر بعد ألف ومائة سنة من عصر فرعون وكان معروفا بقسوته على اليهود.

ويزعم بعض الذين يقولون إن محمدا قد جمع نص القرآن من الإنجيل، أنه، أي محمد صلى الله عليه وسلم، أخطأ في نقل بعض المواد من **التوراة** إلى القرآن فأضاف اسم هامان. إلا أن هذا الزعم قد ثبت بطلانه بعد تمكن العلماء من حل لغز حروف اللغة الهيروغليفية قبل **مائتي** عام. إذ عثر على الاسم "هامان" في الكتابات المصرية القديمة.

ظلت الكتابات الهيروغليفية المصرية القديمة مبهمة ومحجوبة عن إدراك الناس حتى ذلك الوقت. والحق أن اللغة الهيروغليفية المصرية القديمة كانت شائعة ومستعملة لقرون كثيرة إلا أنها اندثرت إثر انتشار الديانة النصرانية **وأتساع** نفوذها الثقافي في القرنين الثاني والثالث الميلاديين. ويرجع تاريخ آخر نص مكتوب باللغة الهيروغليفية إلى سنة ٣٩٤ بعد الميلاد، إذ بادت اللغة الهيروغليفية واندرست بعد هذا التاريخ ولم يكن ثمة من يستخدمها حتى القرن التاسع عشر.

لم يحل لغز اللغة الهيروغليفية المصرية القديمة إلا في عام ١٧٩٩م وذلك بعد اكتشاف "حجر رشيد" والذي يعود تاريخه إلى سنة ١٩٦ قبل الميلاد. تمكن العلماء من قراءة مضمون هذا الحجر باستخدام ثلاث لغات مختلفة هي: الهيروغليفية، ولغة الديموتك، وهي نمط مبسط من اللغة الهيروغليفية كانت تستخدمه طبقة الناس العاديين، واللغة اليونانية. لقد كان لحروف اللغة اليونانية القدح المعلّى في حل لغز الكتابات المصرية القديمة. وكان الخبير الفرنسي، جين فرنسوا، هو الذي أكمل فك شفرة النص الذي تضمنه حجر رشيد فأماط اللثام عن لغة قديمة منقرضة وما **تزخر** به من تواريخ ومعلومات. وهكذا أماط الخبراء اللثام عن حضارة مصرية قديمة لها دين مختلف ونظام اجتماعي مختلف.

وبفضل تمكن الخبراء من حل لغز اللغة الهيروغليفية حصلنا على معلومة تتصل بموضوعنا وتفيد أن اسم "هامان" مذكور في نصوص الكتابات المصرية القديمة. واليوم يوجد هذا الاسم مكتوبا على نصب بمتحف هوف بفيينا. كما يؤكد هذا النص أيضا أن هامان كان من المقربين من فرعون. وفي "قاموس أسماء الأشخاص في المملكة الجديدة Dictionary of Personal names of the New Kingdom وهو قاموس يستند إلى المعلومات المستقاة من مجموع الكتابات المصرية، وردت الإشارة إلى هامان بأنه "رئيس العمال في معامل نحت الحجارة". وبهذا يوافق هذا القاموس القرآن الكريم في الإشارة إلى أن هامان شخص عاش في مصر في زمن موسى عليه السلام وكان مسئولا عن أعمال التشييد والبناء.

كما أن الطريقة التي طلب بها فرعون من هامان بناء صرح تتوافق مع ما توصلت إليه الحفريات الأثرية، إذ قال فرعون:



لم يكن اسم هامان معروفا إلى أن تم فك لغز اللغة الهيروغليفية في القرن التاسع عشر، وعندها تبين أن هامان كان من المقربين إلى فرعون وكان يشغل منصب رئيس العاملين بمعامل نحت وقطع الصخور (في الصورة أعلاه يظهر عمال قطع ونحت الحجارة المصريون). ومما يجدر ذكره هنا أن القرآن أشار إلى أن هامان كان مسئولا عن أعمال البناء والتشييد تحت إمرة فرعون. وعليه يكون القرآن قد أتحفنا بمعلومة لم يكن من الممكن الإلمام بها وقت تنزله.

﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (28: 38).

وفي الختام نقول إن وجود اسم هامان في الكتابات المصرية القديمة يثبت خطأ وسخف المزاعم التي يرغي بها بعض الحاقدين من غير المسلمين، كما أن فيه دلالة على أن القرآن هو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ومن دلائل إعجاز القرآن الكريم أنه أطلعنا على معلومة تاريخية لم يكن ممكنا الاطلاع عليها في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم.

جحود بني إسرائيل

أقام موسى(ع) بمصر مدة طويلة عقب المواجهة التي وقعت بينه وبين السحرة وكان فرعون وملأه قد بسطوا أيديهم خلالها بالقهر والعذاب إلى بني إسرائيل. تصدى موسى(ع) من جهة لظلم فرعون حاثا في ذات الوقت قومه من بني إسرائيل على الصبر والثبات. لكن بعض بني إسرائيل انتقدوا موسى(ع) وتهكموا عليه زاعمين أن وجوده بينهم لم يخفف عنهم ما يلقون من عذاب واضطهاد:

﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (٧: ١٢٨-١٢٩).

إن سوء الأدب الذي واجه به بني إسرائيل رسولهم موسى(ع) يدل على ما كانوا عليه من ضعف روحي ومعنوي. لقد أرسل الله إليهم رسولا لينقذهم من أذى فرعون وقد دعاهم هذا الرسول إلى الصبر والثبات. لكنهم وهنوا وجزعوا بسبب ضعف إيمانهم وقلة فقههم، فطفقوا يجأرون بالشكوى والتذمر لنبيهم موسى(ع). إن المؤمن الحق يشكر الله على كل حال ويرضى بقدره ويسلم بقضائه. والحق أن المؤمن ينبغي أن يكون على هذه الحالة من الرضا والاستسلام لإرادة الله في أوقات الشدة والعذاب والمسغبة. وقد عبر الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذه الروح بقوله: "الحمد لله الذي خلق كل شيء بقدر..." (ابن ماجة). إن هذا الضرب من الإيمان والتسليم لأمر الله هو وحده الكفيل بتحويل المحن إلى منح

ونعم روحية.

لقد أراد الله أن يبين لنا بحديثه عن قصة موسى عليه السلام أن أكثر بني إسرائيل كانت تنقصهم هذه الروح الإيمانية. وكما سيتضح في الصفحات التالية، فإن شكاوى بني إسرائيل التي سبقت الإشارة إليها ستتحول لاحقا إلى جحود ثم تنتهي إلى تمرد على الله تبارك وتعالى. ويقص الله علينا هذه الأحداث لنأخذ منها العبر والعظات. فمثلما أن ثمة دروس للمؤمنين في عصيان فرعون واستكباره، فهناك أيضا دروس في ضعف إيمان بني إسرائيل وعدم خلوص نواياهم.



فترة الكوارث وطيش فرعون

تتابع عقاب الله وعذابه على فرعون وقومه جزاء كفرهم وجحودهم، فكان الجفاف الشديد الذي ضرب مصر أول عذاب يحل بهم. لقد هدد ذلك الجفاف حياة المصريين وذلك لاعتمادهم الكامل على ماء النيل. ونتج عن ذلك الجفاف نقص في الثمرات والمحاصيل حلت على إثره المجاعة:

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (٧: ١٣٠).

ونفهم من هذه الآية أن هذه المجاعة امتدت لسنوات.

أقام موسى(ع) بمصر سنين عددا إثر المواجهة التي وقعت بينه وبين السحرة يبلغ رسالة ربه. وفي تلك الفترة أمر الله موسى(ع) أن يشيد معابد ليقيم فيها قومه من بني إسرائيل الصلاة في أمان. كما هيأت تلك المعابد ملتقى لبني إسرائيل يجتمعون فيه:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيه أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠: ٨٧).



ظل موسى(ع) وأتباعه يقيمون الصلاة ويذكرون الله في هذه المعابد،

أما أهل مصر فقد أمعنوا في الضلال وتواصوا بالغي وشرعوا يلومون موسى(ع) وأتباعه ويحملونهم **مسؤولية** ما حل بهم من عذاب:

﴿ فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِه وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٧: ١٣١).

كانت الكوارث قد انتظمت البلاد كلها، لكنها لم **تثن** فرعون وقومه عن وثنيتهم ولم تردعهم عن التشبث بدين آبائهم. كما أن المعجزات التي جرت على يد موسى(ع) أمام سمع الناس لم تقنع فرعون وملأه بسخف عقيدتهم. بل تمادوا في العناد فقالوا إنهم لن يؤمنوا لموسى حتى لو أتاهم بآية أخرى:

﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٧: ١٣٢).

لكن الله جزاهم على هذا الصنيع مصائب حلت بهم لتكون:

﴿ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ ﴾ (٧: ١٣٣)،

ليذوقوا من عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة.

وكانت أولى هذه النقم موجة الجفاف التي مر ذكرها والتي أهلكت الحرث والنسل.

كانت الزراعة في مصر تعتمد على النيل

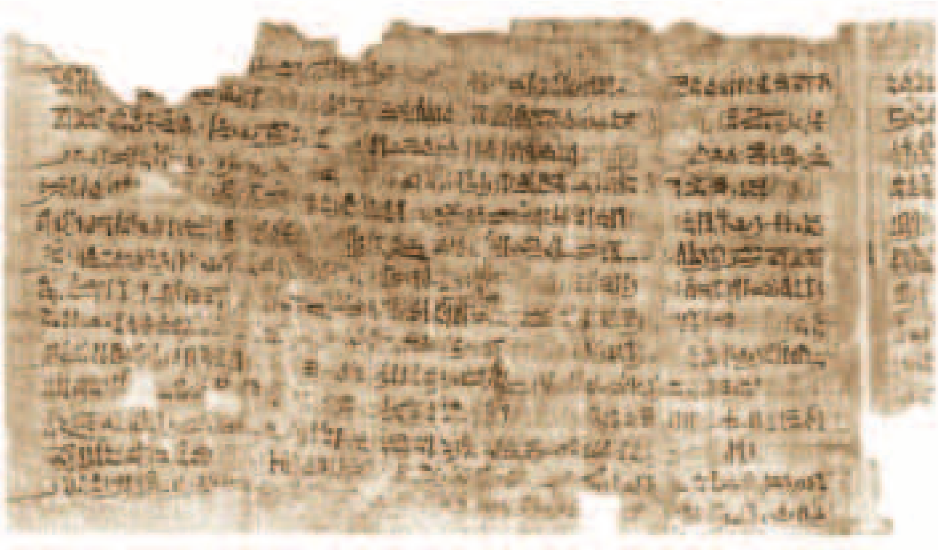


كانت المجاعة هي أحد ألوان العذاب الذي سلطه الله على فرعون وقومه. وفي الصورة أعلاه رسم يصوّر معاناة المصريين من الجوع

ولهذا لم تكن تتأثر بالتغييرات التي تطرأ على المناخ في مصر. فحتى في فصول **القيظ** الشديد وانحباس القطر عن أرض مصر، كان النيل يحمل إلى المصريين قدرا كبيرا من المياه التي تنحدر إليهم من هضاب أفريقيا. لكن لإصرار فرعون وملأه على الكفر واستكبارهم على الله فقد ألمت بهم كارثة لم تخطر لهم على بال، وهي النقص الذي طرأ على الوارد من مياه النيل. وكان ذلك الجفاف تفنيدا لمزاعم فرعون وتبجحه حين قال:

﴿ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٤٣: ٥١).

لكن بدلا من أن تدفع هذه الكوارث فرعون وقومه إلى مراجعة موقفهم، انطلقوا يعدون هذه الكوارث نحسا جلبه لهم موسى وأتباعه من بني إسرائيل. لقد صدقوا هذا الوهم لأنهم قد أشربوا في قلوبهم دين الشرك والأساطير الوثنية



لم تخل المصادر المصرية القديمة من الإشارة إلى الكوارث التي حلت بفرعون وقومه. إلى يسار الصورة مقطع من كتاب "إيبوير بابيروس" (الفصل الثاني، الصفحات ٥-٦): "انتشر الطاعون في الأرض وملأ الدم كل السكك..."

التي ورثوها من الآباء والأجداد. لقد مس فرعون وقومه عذاب شديد لكن هذا العذاب لم يقف عند هذا الحد، بل تلاه عذاب آخر أمض وأنكى. فهو لم يكن سوى بداية لها ما بعدها. فقد أصابهم الله بسلسلة من النكبات وصفها القرآن على النحو التالي:

"فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ" (٧: ١٣٣).

لكن فرعون وقومه أصروا على كفرهم وجحودهم رغم هذه النكبات والآيات ورغم علمهم أنها حلت بهم بسبب كفرهم. في غضون **ذلك** حاول فرعون مخادعة موسى(ع) ومن ورائه الله سبحانه وتعالى. فلما نزلت بهم هذه النكبات المتتالية هرعوا إلى موسى(ع) وتضرعوا إليه أن **يقيهم** شرها ويحميهم منها:

﴿ **وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ** ﴾ (٧: ١٣٤-١٣٥).

يجب أن نلاحظ هنا أن سلوك الكفار شديد الشبه بسلوك الشيطان. فلقد فسق الشيطان عن أمر ربه رغم إقراره بوجوده، وكذلك قوم فرعون أبوا أن يؤمنوا رغم إقرارهم بأن ما يحل بهم من عذاب إنما هو من عند الله. فهم في النهاية أقروا بوجود الله لكنهم امتنعوا عن الخضوع له بسبب تكبرهم وتمسكهم الأعمى بدين الآباء والأجداد.

ظل موسى (ع) ولمدة طويلة يدعو قومه إلى الله ويبلغهم رسالة ربهم. كما أظهر الله على يديه طائفة من المعجزات المتتابعة للدلالة على صدق دعوته لكن فرعون ظل على كفره وتكذيبه ومحاربته لدين الله:

﴿ فِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ (٥١: ٣٨-٣٩).

أسف موسى لهذا الإصرار فاندفع يدعو الله أن ينزل عذابه بهذه الأمة المتجبرة المتمردة على ربها:

﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (١٠: ٨٨-٨٩).

استجاب الله لدعوة موسى(ع) فصب جام عذابه على فرعون وقومه لتنكبهم سبيل الهدى وتلهيهم عن تحذيرات رب العالمين. وكانت نهايتهم أشبه شيء بسلوكهم، إذ خسف الله بهم وبأموالهم الأرض.



خروج بني إسرائيل من مصر وهلاك فرعون غرقا في البحر

هناك حد معين **للعفو** الإلهي الذي تتلقاه أي أمة من الأمم. ومن رحمة الله بالناس أنه يحذرهم وينذرهم بواسطة رسله وكتبه وعباده الصالحين الذين يدعون الناس جميعا ليؤمنوا بالله ربهم وخالقهم ويطيعوه. وقد يستمر هذا التواصل بين الله وعباده سنين متطاولة. لكن هناك دوما حد مقدر ينتهي عنده طور الإنذار هذا. فمن يصر على الكفر والمعصية من الناس من بعد ذلك يحل به عذاب في الدنيا وفي الآخرة.

لقد استحق فرعون وملأه الذين لم تر أعينهم أبعد من مصالحهم الشخصية الضيقة وحاربوا الله ورسله ما حل بهم من عذاب. لقد تمردوا على خالقهم ورموا رسولهم بالجنون والكذب، فأعد الله لهم لقاء كفرهم وجحودهم هذا نهاية مأساوية مهينة.

أمر الله موسى(ع) قبل حلول عذابه بفرعون وقومه أن يخرج ببني إسرائيل من مصر: "وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ" (٢٦: ٥٢). فعمد موسى(ع) نزولا عند أمر الله إلى الخروج من مصر خفية.

أثار خروج بني إسرائيل حنق فرعون وذلك أنه رأى فيه تمردا على ألوهيته وسلطانه. كما خشي أن ينتج عن خروجهم أزمة في الأيدي العاملة قد تقوّض سلطته في نهاية الأمر، ولهذا حشد فرعون جنوده وخرج وراء بني إسرائيل يريد



أحد مقاطع الفيلم المسمى: "الوصايا العشرة" والذي يبدو فيه موسى وهو يشق البحر بعصاه.

ردهم إلى مصر ومنعهم من الفرار:

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ إِنَّ هَؤُلَاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾

(٢٦: ٦٠-٥٣).

أدرك فرعون وجنوده موسى(ع) وقومه عند ساحل البحر. وقد أصاب مقدم فرعون واقترابه هو وجنوده قوم موسى بالرعب واليأس، إذ لم يعد يفصل بين الفريقين سوى مسافة قصيرة ولم يكن ثمة مجال للهرب وأيقن القوم أنهم واقعون في قبضة فرعون لا محالة:

﴿ فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ (٢٦: ٦١).

عند تلك اللحظة تصرف موسى(ع) تصرفا فيه قدوة للمؤمنين في كل زمان ومكان، لقد تذكر أنه لا ينبغي له أن يستيئس من رحمة ربه وعونه: "قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ" (٢٦: ٦٢). ثم انصاع لأمر الله حين أمره قائلا: "فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ" (٢٦: ٦٣). فشاء الله أن ينصدع البحر نصفين بينهما سبيل جافة لم يلبث بنو إسرائيل أن سلكوها. دفع الغرور فرعون وجنده إلى مواصلة السير خلف موسى(ع) وقومه بين فلقي البحر. ونحن هنا أمام معجزة حقيقية، فلا جرم أن عون الله وتوفيقه كان في جانب موسى(ع) وأتباعه. لكن هذه المعجزة البينة لم تكن كافية لإقناع فرعون ببطلان موقفه، واندفع هو وجنوده في تهور غريب وراء بني إسرائيل سالكا السبيل التي انشق عنها البحر. لكن بعد وصل بنو إسرائيل إلى بر الأمان عاد البحر إلى ما كان عليه وتلاقى جانباه فأغرقا فرعون وجنده. ورغم أن فرعون حاول في آخر لحظة من حياته أن يتوب إلى الله، إلا أن الله لم يقبل توبته:

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ (١٠: ٩٠-٩٢).

ثمة درس بليغ ومهم يستفاد من توبة فرعون عندما أدركه الموت وعدم قبول



رسم مصري قديم يصوّر جنود فرعون أثناء أحد العروض العسكرية

الله لتوبته. إن الله يمنح كل فرد منا فرصة كافية ليتأمل في الغاية من خلقه وليدرك أنه إنما خلق لهدف واحد وهو أن يعبد الله سبحانه وتعالى مخلصا له الدين. وإن الرسل والوحي والمؤمنين كل أولئك وسائط تصل عبرها كلمة الله إلى خلقه. وأمام الإنسان وقت كاف للتأمل في هذه الرسالات والتعرض لنفحات رحمة ربه. فإن أضاع المرء الفرصة التي يعطاها وأرجأ التوبة إلى أن يدركه الموت، ما لم يقع ذلك بمشيئة الله، فلن تغني عنه توبته شيئا. لأن الإنسان يدرك عند الموت حقيقة الآخرة وقربها ويوقن بذلك حين تأتيه ملائكة الموت. فعند تلك اللحظة لا يسع الإنسان أن يعرض عن الحق، ولهذا فمن المهم أن يغتنم الإنسان سانحة وجوده على قيد الحياة فيبادر بالتوبة **قبل الاحتضار والموت**. ولقد أنفق فرعون عمره في مناكفة الحق والتعالي عليه والإعراض عن الله والصد عن دينه وازدراء رسله،

ولذلك لم تنفعه توبته التي وقعت بين يدي خوف وإكراه **وبعد فوات الوقت.**

وفي هذا إنذار وتحذير لمن يرجئون التمسك بالدين والالتزام بشريعة الله إلى آخر مراحل أعمارهم. إن الإتيان بفرائض الدين لا ينبغي أن يؤجل البتة. إن الأشخاص الذين يؤخرون التوبة ويتلهون عن الدين زمن شبابهم ستتقدم **بهم** السن وسيبلغون أطوارا من الكبر لا تكون للتوبة فيها ذات القيمة والأهمية. ويخبرنا الله عن هذه الحقيقة في قوله:

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (٤: ١٧-١٨).

لا جرم أن الله لم يقبل توبة فرعون المتأخرة جدا. ويصور الله لنا حال فرعون وأصحابه في نار جهنم على النحو التالي:

﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ (٤٠: ٤٦-٤٨).

وسنرى بأم أعيننا في الدار الآخرة إن شاء الله سوء عاقبة فرعون وبطانته الذين آذوا موسى عليه السلام ومن اتبعه من المؤمنين. كما يحسن بنا أن نبتهل إلى الله أن يجعلنا ممن يشاهدون عذاب فرعون لا ممن يكبون على وجوههم في النار معه، وأن يدخلنا الجنة دار الكرامة والرضوان بفضله، آمين.



تظهر هذه الصورة الكبيرة جثة فرعون (رمسيس الثاني) والتي أخرجت من مقبرته. وتشير عدة مصادر إلى أنها جثة الفرعون الذي كان يحكم في عهد موسى عليه السلام. لكن كيف عثر على جثة فرعون في مقبرته رغم حقيقة أنه غرق في البحر؟ أغلب الظن أن الموج ألقى جثته بالساحل فأخذها المصريون ودفنوها بالمقبرة. وفي الصورة أعلاه موكب من المصريين وهم يحملون جثة فرعون إلى المقبرة.



﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾

(١٠: ٩٢)

غرور قارون وما حل به من عقاب

إن قارون هو أحد الأشخاص الذين حل بهم سخط الله وعقابه في عهد موسى عليه السلام. ويخبرنا القرآن أن قارون كان من ذوي الثراء العريض في مصر رغم كونه من بني إسرائيل:

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ (٢٨: ٧٦).

والآية التالية تفيدنا أن قارون شاطر فرعون الكفر برسالة موسى(ع):

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ (٤٠: ٢٣-٢٤).

إن ثراء قارون ووضعه في المجتمع المصري دفعاه للتعالي على قومه من بني إسرائيل وأبى أن يؤمن بالحق الذي جاء به موسى (ع) وتفاخر وتباهى بما عنده من مال ليشعل في قلوب بني إسرائيل حب الدنيا والالتصاق بها. والحق أن بعض بني إسرائيل كانوا يحسدون قارون على ثرائه ومكانته الاجتماعية. يحكي الله لنا تكبر قارون واستعلائه وما اعتمل في قلوب ضعفاء الإيمان من بني إسرائيل من إعجاب بثرائه ومكانته:

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (٢٨: ٧٩).

لكن أصحاب الإيمان الحق من بين إسرائيل لم تعجبهم حال قارون ولم يسل لعابهم لما عنده من نعيم الدنيا، بل كانوا يرثون لحاله ويبذلون له النصح حينا والتحذير حينا آخر:

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٢٨: ٧٦-٧٧).

كما انبروا يعظون وينصحون ضعفاء النفوس من بني إسرائيل ممن أعجبهم حال قارون، أن لا ينخدعوا بسراب الثروة الزائل وأن لا يؤثروا نعيم الدنيا الذي لا يبقى على النعيم الأخروي الخالد:

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴾ (٢٨: ٧٩-٨٠).

إن السبب الأول لضلال قارون هو ظنه أن حنكته وحدها هي التي جلبت له الغنى والثروة. وبعبارة أخرى، تملكه شعور بالتفوق على الآخرين:

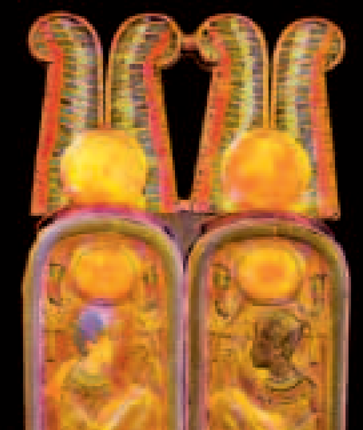
﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (٢٨: ٧٨).

لكن تكبر قارون قد عاد عليه في نهاية المطاف بالدمار والبوار. لقد جلب قارون لنفسه سوء العذاب بسبب جحوده وزعمه الباطل أنه جمع ثروته الضخمة

﴿ فَخَرَجَ عَلَى
قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾
(٢٨: ٧٩)



﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ
يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ (٢٨: ٨١)











لقد أثرى قارون ثراء واسعا استفاده بسبب قربه من فرعون رغم انتمائه إلى بني إسرائيل. وقد أشار القرآن إلى عظم ثروته بالقول إن مفاتيح خزائنه كانت من الكثرة والثقل بحيث يصعب حملها. لكن ثروته هذه لم تزده إلا جهلا وغطرسة، فطمس الله على ماله وجعل منه مثلا وعبرة لمن يأتي بعده من الأجيال ولمن اغتروا بثرائه حتى أنساهم ذكر ربهم



بفضل ذكائه الشخصي ومهاراته التجارية. وأدرك قارون في نهاية الأمر أنه عبد ضعيف وفقير إلى الله خالقه وحاق الدمار بماله الذي ملأه زهوا وخيلاء:

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ (٢٨: ٨١).

إن في العذاب الذي حل بقارون لعبرة **ودرساً** لمعاصريه ولمن يأتون بعدهم من أجيال. لقد أدرك الذين تمنوا مكان قارون أن الثراء الذي سحر ألبابهم لم يكن سوى نعيماً مؤقتاً ذهب أدراج الرياح في نهاية الأمر. لقد قرّ في روعهم أن الذين يزدهون بما عندهم من متاع الدنيا ليس لهم خلاق في الآخرة وسيحاسبون على إجرامهم في نهاية المطاف:

﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢٨: ٨٢).

﴿ وفي النهاية لقي قارون ذات المصير الذي لقيه فرعون وهامان: "وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴾ (٢٩: ٣٩).

إن قصة قارون لتدلنا على أن رحمة الله لا تنال الذي يستكبرون بسبب ما عندهم من مال وثروات ولظنهم أنهم أكثر معرفة وعلما من الآخرين.وفي القرآن قصص أخرى عن دول وحضارات أخرى طواها الزمن كانت قد أحرزت نجاحا عظيما وجمعت ثروات مادية طائلة، لكنها برغم ذلك أبيدت من على ظهر الأرض. لقد أهلك الله أولئك الشعوب الذين ظنوا أنهم أسياد العالم وأحال قصورهم إلى أنقاض وخرائب:

﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ (٢٢: ٤٥).

وهناك درس آخر في قصة قارون وهو أنه لا ينبغي لنا أن ننخدع ببريق النعيم الدنيوي المؤقت وأن لا نغتر بأصحابه. وأن نصبر أنفسنا مع المؤمنين المحتسبين الصابرين على البأساء والضراء والمنفقين في سبيل الله الناذرين أنفسهم في سبيل الله من المؤمنين والمؤمنات العامرة قلوبهم بحب الله. يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسادكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم" (مسلم). إن الأشخاص الذين شغلهم الثراء ورغد العيش عن ذكر الله وعن السبيل، هم في الحقيقة يتقلبون في جحيم الحرمان الروحي. وإن كل يوم يمر عليهم يقربهم زلفى من العذاب المقيم في نار جهنم، يقول الله عز وجل:

﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٩: ٥٥).

لا ينبغي للمال أن يكون هدفا بذاته يطلبه المرء بقصد الاستمتاع والتباهي فقط، بل يتعين علينا أن نعي وأن ندرك أن الإنسان يبتلى بما يملك أيضا. فهذه الأموال تسعد أصحابها طالما سخروها في مرضاة الله. لقد حل العذاب بقارون في نهاية المطاف رغم كثرة ماله.

ضلال بني إسرائيل واتخاذهم العجل

بعد غرق فرعون وجنوده في البحر توجه موسى(ع) بقومه إلى مكان يكونون فيه أكثر أمنا. وقد بدر من بني إسرائيل أثناء هذه الرحلة ما يدل على ضعف إيمانهم وجرأتهم على حدود الله.

لقد كان المصريون يدينون بديانة وثنية وكانوا يعبدون آلهة شتى وكان بنو إسرائيل قد تأثروا بهذه الديانة الوثنية أيام إقامتهم في مصر. لقد نسى بنو إسرائيل ذكر الله وتنكبوا طريق التوحيد الذي ورثوه من أسلافهم من الأنبياء، إبراهيم واسحق ويعقوب عليهم السلام. وقد أتى عليهم حين من الدهر تأثروا فيه بثقافة المجتمع المصري وانتقلت إليهم طائفة من أفكاره وممارساته المنحرفة. وكان مرورهم على إحدى القبائل الوثنية أثناء سيرهم من مصر قد جدد وأحيا هذه الميول الوثنية المستكنة في نفوسهم. تأثر بعض بني إسرائيل بالممارسات الوثنية لتلك القبيلة وسألوا موسى أن يجعل لهم إلها:

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَـؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (٧: ١٣٨-١٣٩).

توجه موسى(ع) وقومه صوب جبل سيناء. وكما جاء في القرآن فقد كان

موسى(ع) على موعد لعقد ميثاق مع الله سبحانه وتعالى خلال فترة الأربعين يوما التي سيقضيها في الجبل. كان يتعجل لقاء الله فبكر بالخروج تاركا قومه وراءه. استخلف موسى(ع) على قومه أخاه هارون والذي هو أيضا رسول من الرسل ليكون قيّما على بني إسرائيل أثناء غيابه موسى(ع). وكان موسى(ع) قد زود هارون ببعض النصائح قبيل مغادرته:

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾

(٧: ١٤٢).

وعندما بلغ موسى المكان المضروب عند جبل حوريب كلمه الله ثانية:

﴿ وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَـكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٧: ١٤٣-١٤٥).

وفي هذه الأثناء انتهز الذين استحوذ عليهم الشيطان من بني إسرائيل فرصة

غياب موسى(ع)، فعمدوا إلى عمل صنم في صورة عجل، تأثرا بسلوكك المصريين، متجاهلين تماما وجود هارون(ع) بينهم:

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ" (٧: ١٤٨).

وكان الله قد سأل موسى عن قومه وسبب استعجاله الخروج: "وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى قَالَ هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾

(٢٠: ٨٣-٨٤).

لم يكن موسى(ع) يدر ما فعل قومه بعد ذهابه عنهم، فأخبره الله عما بدر منهم من عدوان وعن وجود منافق بينهم اسمه السامري وكيف أنه صنع لهم صنما في هيئة عجل:

﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ (٢٠: ٨٥).

وبعد ذلك حمل موسى(ع) الألواح وغفل راجعا إلى قومه:

﴿ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴾ (٢٠: ٨٦-٨٨).

تبين لنا هذه الحادثة بتفصيل واضح أن مرضى القلوب في كل مجتمع يقعون فريسة لتلبيس المنافقين. والحق أن المنافقين يتصيدون الفرص دائما ليثيروا الفتن



تأثر بنو إسرائيل بالخرافات والأساطير التي كانت سائدة في مصر. وقد بقوا على ضلالهم القديم رغم رسالة الحق التي جاءهم بها موسى. وكما يبدو في الرسم أعلاه فقد انحرف بنو إسرائيل عن سواء السبيل بعبادتهم العجل.

والفوضى. وقد مثل غياب موسى(ع) فرصة سانحة لإضلال فريق كبير من قومه كانت قلوبهم مسكونة أصلا بحب الشرك والوثنية. لقد الظهر السامري في الوقت المناسب وكان يعرف مواطن الضعف في بني إسرائيل وميلهم للشرك، كما كان يعلم أنهم سألوا موسى(ع) من قبل أن يجعل لهم إلها، فاستغل السامري هذه الرغبة وهذا الاستعداد فبنى لهم تمثالا في هيئة عجل زاعما أن موسى(ع) كان يعبده من قبل لكنه نسيه بمرور الوقت.

مثلما ثبت موسى(ع) على دينه وقاد قومه إلى سبيل الرشد والنجاة حين تصدى لهم فرعون وجنوده عند ساحل البحر، فكذلك قاد السامري ذات القوم إلى مظان الكفر والعدوان، وفي هذا دليل على الخير والهدى الذي يمكن أن يأتي على أيدي المصلحين الأخيار والشر والضلال الذي يمكن أن يجلبه المنافقون والأشرار لمجتمعهم.

والحق أن هارون كان قد وعظ قومه وأبان لهم سوء عملهم وانحرافهم عن سبيل الرشد لكن قومه لم يلتفتوا لوعظه:

"وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾

(٢٠: ٩٠-٩١).

مما سبق يتضح لنا أن اتباع بني إسرائيل لموسى كان فقط بسبب قبولهم لقيادته. فلو كان اتباعهم **له** نابعا من عقيدة راسخة لاختلف الأمر ولكانوا قد أطاعوا هارون(ع) أيضا لأنه رسول من رب العالمين. فلأنهم لم يرتضوه قائدا فقد تجاهلوا وعظه لهم. والأسوأ من ذلك أنهم أرادوا قتله حين حاول أن يردهم عن ضلالهم

﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾

(٢٠: ٩٢).

﴿ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ

الأَعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٧: ١٥٠-١٥١).

وبعد أن سمع موسى(ع) رد أخيه هارون(ع) التفت إلى السامري المسئول الأول عن ضلال بني إسرائيل فسأله عن جرمه فرد السامري قائلا أنه فعل ما فعل لسبب وجيه وزعم أنه لاحظ أشياء غفل عنها الآخرون، مضيفا أن نفسه سولت له صناعة العجل:

﴿ **قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا** ﴾ (٢٠: ٩٥-٩٧).

يحسن بنا هنا أن نذكر أن السامري اقترف جرمه متوهما أنه يفوق بقية القوم بصرا وحكمة. ويبدو هذا الإعجاب بالذات من قوله: " بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ" وهذا الشعور بالتفوق وتضخم الأنا هو الذي جعل السامري ينقاد ويستسلم لوساوس النفس والشيطان. إن هذه التأثيرات السلبية هي التي أغرته "بعمل شيء متميز" وبأن يصبح في موقع الصدارة ليورد قومه موارد الضلال.

وعلى النقيض من ذلك لا يرى المؤمن الحق أنه أعلى وأعقل من الآخرين. فهو أعلم **بعورات** نفسه ونقائصها ويسأل الله التوفيق والنجاة من الزلل. وحتى إن وفقه الله فأبصر شيئا ذهل عنه الآخرون فإنه يعد ذلك توفيقا من الله ونعمة يشكر

الله عليها ويكون قوله: "لقد أراني الله ذلك والأمر كله بيد الله".

أما السامري فقد ساقته رؤاه إلى الشر والضلال. وقد اتخذ موسى خطوتين هامتين في مواجهة الجرم الذي اقترفه السامري، فعمد أولا إلى نفي السامري الذي هو مصدر الشر والعدوان في قوم موسى. أما الخطوة الثانية فقد تمثلت في نسفه الصنم الذي صنعه السامري وذر رماده في البحر كي لا يعثر له على أثر أبدا.

وهنا يتضح لنا مدى النقاء الذي كان يميز عقيدة وإيمان موسى(ع) ومدى إخلاصه لدينه، إذ اندفع بتصميم قوي ليقضي قضاءً مبرما على شيء رأى فيه تهديدا ماحقا للدين الحق. وهذا لعمري هو سبيل أنبياء الله وسبيل الصالحين المهتدين. وبعد أن فرغ موسى(ع) من نسف كافة مصادر الضلال وعظ قومه وأمرهم بالتوبة والإخبات إلى ربهم:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢: ٥٤).

لم تؤثر مواعظ موسى(ع) في قومه إلا قليلا، إذ إنهم انتبهوا لتحذيراته أول الأمر وتابوا وأنابوا إلى الله. لكنه كان تحولا مؤقتا. وسنرى في الصفحات التالية كيف تمرد بنو إسرائيل **عليه** وأسرفوا في إيذائه وإغاظته.

ضلال بني إسرائيل

كانت جهود موسى(ع) في بادئ الأمر مصوبة تلقاء باطل فرعون وظلمه. ولأن بني إسرائيل لم يجدوا في مصر سوى الاضطهاد والاستعباد فقد أجابوا دعوة موسى(ع) للخروج من مصر. لكن هذه المطاوعة لم تكن نابعة من إيمان صادق وانقياد لأمر الله، فقد كان منهم من يحركه الانتماء القبلي فقط. وأغلب الظن أن الأكثرية من بني إسرائيل فد رأوا في موسى(ع) قائدا سياسيا طرح إمكانية تخليصهم من ربقة الذل والاضطهاد. ولذلك ارتكس الكثيرون منهم إلى ماضيهم الوثني بدلا من السير على سبيل الرشد. وهكذا كانوا دائمي التحدي لموسى(ع) رافضين الدين الحق الذي جاء به:

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ (٧: ١٦٠).

إن تكن قلوب أكثرية بني إسرائيل عامرة بالإيمان الحق، فقد تجرءوا على أن يسألوا موسى أن يريهم الله جازمين له أنهم لن يؤمنوا له أبدا حتى يتحقق شرط الرؤية هذا:

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ (٢: ٥٥).

ويتضح لنا هنا أن الطمع والجحود طبائع أصيلة في بني إسرائيل. فقد أسبغ الله عليهم نعمه ظاهرة وباطنة وأنزل عليهم طعاما بطريقة فيها من الإعجاز ما فيها، لكن هذا الطعام الذي يشار إليه في القرآن بـــ

﴿ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى" لم يكف لإرضائهم: "وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـــكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٢: ٥٧)،

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾

(٢: ٦١).

وفي هذا دليل آخر على عظيم جحود بني إسرائيل وعتوهم **عن أمر** ربهم.

قصة البقرة

من الواضح أن الإيمان الحق لم يدخل في قلوب بني إسرائيل. وكما سلفت الإشارة فقد كان اتباعهم لموسى(ع) نابعا من حقيقة أنهم رأوا فيه قائدا قويا وذا عزيمة. وفي محاولة منهم لتطويع الدين لشهواتهم وموروثاتهم الدينية القديمة،

فقد تعمدوا تحريفه وتبديله وأحالوا بساطته ويسره إلى تعقيد ومشقة. لقد كانت قلوبهم تستبشر بعبادة غير الله وحرفوا الدين وأحالوه إلى سلسلة من الطقوس. وفي سورة البقرة قصة تبين تعمد اليهود تحريف دين الله وتعقيده بشكل مستمر. جاء في سورة البقرة أن الله أمرهم بذبح بقرة. وهو كما ترى أمر بسيط وواضح. لكن بني إسرائيل عقدوا هذا الأمر البسيط والسهل وشغلوا أنفسهم بتفاصيل لا قيمة لها، بل ذهبوا أبعد من ذلك بأن اتهموا موسى(ع) بأنه يسخر منهم ويهزأ بهم:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِـعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاء اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ (٢: ٦٧-٧١).

تشير الآية أعلاه أن بني إسرائيل كانوا لا يكفون عن الاعتراض على أوامر الله، ولا يخضعون لأمره إلا بعد أن يحيطوه بتفاصيل تكاد تجعله غير قابل للتطبيق. والحق أن الأمر الذي جاءهم به موسى(ع) كان في غاية الوضوح والبساطة.

إن نظرة عميقة لليهود اليوم تكفي للكشف عن منطق العناد الذي يستحوذ

على هؤلاء الناس. إذ يحتوي كتاب التلمود الذي يشتمل على التعاليم اليهودية التقليدية على تفاصيل مربكة تتصل بالعبادات والحياة اليومية. فقد يجد فيه المرء مثلا تفاصيل لا حصر لها ولا علاقة لها بالدين في أهون الأشياء مثل حلب بهيمة أو استخدام بخور. وكلما حرص اليهودي على الوفاء والالتزام الصارم بهذه التفاصيل كلما زادت تقواه وحسنت ديانته. أما فحوى التقوى وجوهرها والذي هو الإيمان بالله واليوم الآخر، فليس له أهمية تذكر. ولهذا فقد تحولت اليهودية إلى طائفة من الطقوس لا تمت بصلة لأصول الإيمان مثل ذكر الله واستشعار رحمته ومحبته.

عتو بني إسرائيل عن أمر الله

وعد الله بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر أن يمنحهم أرضا تكون لهم وطنا. وقد مرّ بنا فيما مضى أمثلة كثيرة لاعتراضات بني إسرائيل على موسى(ع) أثناء مسيره بهم من مصر. وقد ظلوا على عنادهم هذا إلى أن بلغوا **فلسطين:**

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِين قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾ (٥: ٢٠-٢٢).

كان الله دوما في عون بني إسرائيل. فقد أنجاهم من بطش فرعون وشق

لهم البحر طريقا إلى وطن جديد يسكنوه ونجاة من وطن قديم قد بلوا المرّ من ثمره. كما وعدهم النصر في المواجهة التي ستقع بينهم وبين القبيلة الظالمة التي كانت تقطن الأرض التي وعدوها. لهذا كان حريا بهم أن يتوكلوا على الله ويطيعوا رسوله. لكنهم بدلا من ذلك عصوا موسى(ع) وامتلأت قلوبهم رهبة **من القتال** وتراجعوا جميعهم ما خلا رجلين منهم أعلنا عن ثقتهما بالله وعزمهما على دخول **ألارض المقدسة:**

﴿ قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٥: ٢٣).

لم يأبه بنو إسرائيل لتحذيرات نبيهم وخالفوا أمره وخاطبوه بطريقة فاجرة لا أدب فيها قائلين:

﴿ قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ (٥: ٢٤).

والحق أن عجرفة بني إسرائيل كانت قد بلغت حدا جعلهم يشرعون في تجاهل تذكير أنبيائهم تجاهلا تاما والمجاهرة بمخالفتهم. ولذلك تضرع موسى(ع) إلى الله سائلا أن ينجيه وأخاه **هارون** من شرور قومه المتغطرسين:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٥: ٢٥-٢٦).

وكما تشير هذه الآية فقد حرمت **ألارض المقدسة** على بني إسرائيل أربعين سنة بسبب استكبارهم وتعاليهم على ربهم ورسوله.

لقد أنفق موسى(ع) جل حياته في تذكير قومه وردهم عن عبادة الأصنام وهدايتهم إلى الدين الحق. لقد كانت غايته أن يحول بينهم وبين عذاب جهنم وبلا دافع سوى الطمع في إرضاء الله. ومن أجل هذه الغاية واجه موسى(ع) فرعون وسعى إلى تطهير قومه من عقائد الوثنية وضلالاتها. لكنه لم يحظ إلا بالعداوة من قبل فرعون ومن قبل قومه. لكنه صبر وصابر لأنه من عباد الله المخلصين الذين يرجون رحمة ربهم، فكافأه الله على ذلك بأن سهل له مخرجا من جميع الكروب التي واجهته.

وهنا جملة من الدروس المستفادة من جحود بني إسرائيل الذين عصوا رسولهم واتخذوا الدين الذي أنزل إليهم هزوا ولعبا **وتجرأوا** على مخاطبة رسولهم قائلين في وقاحة بادئة: "اذهب أنت وربك فقاتلا". وقد حذر الله الناس من مغبة اتباع خطوات بني إسرائيل في التعامل مع رسولهم:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ (٣٣: ٦٩).

موسى(ع) والرجل
الذي آتاه الله علما وحكما

في سورة الكهف قصة أخرى عن موسى عليه السلام. ولا يستطيع المرء من خلال مطالعته للقصة أن يحدد في أي طور من أطوار موسى جرت أحداثها، لكننا نفترض أنها وقعت بعد خروج موسى من مصر ومعه قومه من بني إسرائيل. وإن أبرز ما يميز هذه القصة هو الرمزية التي تسم أحداثها. جوهر القصة حوار وقع بين موسى(ع) ورجل حكيم. وتبدأ القصة بخروج موسى(ع) في سفر ومعه غلام له:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ (١٨: ٦٠-٦٤).

إن في هذه الآيات دروس مهمة، فقول موسى: " آتِنَا غَدَاءنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا" يرينا أن موسى(ع) قد توقف مرة واحدة للراحة ولتناول الطعام في

حين يتوقع من غيره أن يتوقف مرتين مرة للراحة ومرة لتناول الطعام. وفي تصرف موسى هذا إشارة إلى أن المسلم يجب أن يدبر ويدير وقته بتعقل وحكمة. أما الدرس الآخر الذي تتضمنه هذه الآيات فهو نسيانهما طعامهما ودور الشيطان في هذا النسيان. ففي الآية تأكيد لحقيقة أن الشيطان من مسببات النسيان. فالشيطان مثلا ينسي الإنسان بقصد منعه من عمل شيء فيه نفع له وللمسلمين. إن هدفه الأول هو صد المؤمن عن ذكر الله. **وليست** هناك وسيلة يحتمي بها الإنسان من شرور الشيطان أفضل من الاشتغال بذكر الله.

والدرس الثالث في هذا الحوار بين موسى(ع) وفتاه هو تنبّه موسى(ع) وتفطنه لآيات الله. فقد فهم على الفور أن نسيانهما الطعام آية وعلامة تدل على وجوب أن يغير طريق سيره. وهذا دليل على **انشغاله** بذكر الله الأمر الذي جعله يؤمن إيمانا قاطعا أن كل ما يقع في الكون مقدر من قبل الله. وقد أكسبت هذه الصفة موسى(ع) علما وحكمة وجعلته قادرا على الوصول إلى استنتاجات سليمة بمراقبة ما يجري حوله.

لقد رأى موسى وفتاه في نسيانهما علامة دفعتهما إلى تغيير خط سيرهما **وقفلا** راجعين. وبعد حين لقي موسى(ع) رجلا معينا. لم يشر القرآن إلى اسم هذا الرجل ذي الحكمة الواسعة لكن الآثار قد عرفته بأنه الخضر. ورغم الاستعداد الذي أبداه موسى للتعلم من الرجل إلا أن الأخير صارحه بأنه، أي موسى(ع)، لن يستطيع معه صبرا. وأحداث القصة كما سردها القرآن على النحو التالي:

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ من لَّدُنَّا عِلْمًا َ
لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ
مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء
اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى
أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا
لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا
قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا
لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا قَالَ
أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا
تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا
أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ
شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ
تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ
أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ
أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا
خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ
وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا
وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ

تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (١٨: ٦٥-٨٢).

تفيدنا هذه الآيات أن المصائب والأزمات قد يكون وراءها خير وفرج يسوقه الله للناس. إن إغراق سفينة دون سبب ظاهر وقتل طفل بريئ لم يرتكب أي جرم قد تبدو أعمالا شريرة إذا نظرنا إليها دون فهم كاف. لكن الله ينبئنا أن وراء هذه الأفعال الشريرة ظاهرا حكمة قدرها الله لكنها حكمة مستترة أو لا يمكن إدراكها على الفور. ومن الواضح أن جميع الأحداث التي تضمنتها هذه القصة لها مدلولات خفية. فهي لم تكن أحداثا عادية، بل خُصّ بها رجل فاضل بعينه اختاره الله سبحانه وتعالى.

ينبغي للعباد أن يتفكروا في الحسنات المستكنة في كل السيئات التي تصيبهم في مجرى حياتهم اليومية. ولا شك أن ثمة تقديرا وحكمة إلهية وراء الأحداث التي تقع اليوم والتي ظاهرها الشر والتي يعلق عليها أكثر الناس بقولهم: "لماذا تحل كل هذه الكوارث ببني الإنسان". فإن صبر الإنسان وأخلص واجتهد في استكناه الحكمة الإلهية المستكنة في هذه الأحداث، فسيمن الله عليه بإدراك ما وراءها من معان خفية.

خاتمة

كما تشير الآيات التي مر ذكرها فقد كثرت وتنوعت الإشارات إلى موسى في القرآن الكريم. إن **حياة هذا الرسول** مثال مفعم بالعبر والدروس للمؤمنين، بدءا بطور حياته الباكر إلى جانب الدروس والعبر التي تعرضنا لها في هذا الكتاب. وإن التأمل في معاني هذه الدروس يقودنا إلى إدراك مدى استيعاب القدر لحياة الإنسان والخير الذي يمثله لأصحاب الإيمان الحق. ويمكن إيجاز الدروس المستفادة من حياة موسى عليه السلام على النحو التالي:

١.القدر وما فيه من حكمة إلهية.

لقد سبق في قدر الله أن موسى(ع) سيكلف بالرسالة وسيجاهد في سبيل تبليغها وذلك قبل أن يولد عليه السلام. وبالمثل يتعين علينا حين نتأمل في أحوالنا أن ندرك أن حياتنا بكل ما فيها تجري وفق قدر مرسوم. وأن هذا القدر أفضل شيء لنا وذلك لأن الله ربنا وخالقنا هو الذي كتبه وقد كتبه بعلمه ورحمته اللتين لا تحدهما حدود. ولهذا يتوجب علينا أن نرضى بأقدارنا وأن نتقبل ما يقع لنا بكل الرضا عالمين أنه جزء مما قدره الله لنا في حياتنا.

٢.السير في ركاب المؤمنين.

مر بنا في موضع متقدم من هذا الكتاب أن موسى(ع) انحاز إلى رجل من

قومه وقتل نفسا على سبيل الخطأ. وفي هذا إشارة إلى خطأ التعصب غير المشروط للأهل أو للعشيرة أو للوطن. إن الذي يسمو بالإنسان ليس هو أسرته أو قبيلته أو أمته، بل الذي يسمو به هو درجة استقامته ومستوى صلاحه. وعليه يتعين علينا جميعا أن نزن سلوكنا بقسطاس العدل المستقيم.

٣.الإيمان بالله والتوكل عليه.

تنبهنا قصة موسى لأهمية التوكل على الله والثقة به. وقد علم الله موسى(ع) أن يتوكل عليه رغم ما جبلت عليه نفسه من استعجال. ولقد تعلم من جميع الأحداث التي وقعت له في حياته أن يتوكل على الله الذي بيده ملكوت كل شيء. كما كان يضرع إلى الله أن يغفر له ذنوبه وأتى من الأفعال ما يكفر به هذه الذنوب.

ولكي يثق العبد بخالقه يتوجب عليه أن يعرفه ويقدره حق قدره. وهذه المعرفة تحصل للمؤمن من خلال التأمل في أسماء الله المحي المميت المسيطر المحيط الذي يقول للشيء كن **فيكون** المالك الرحمن مجيب الدعوات **الهادي** الذي إليه ترجع الأمور. فلو أدركنا قدرة خالقنا حق الإدراك لما لذنا بغيره ولما عذنا بسواه.

٤.الطبيعة المؤقتة للحياة الدنيا ومتاعها.

كما تبين لنا من قصة قارون فإن الموت يهدم كل ملاذ الحياة الدنيا. كما أن المال قد يجلب لصاحبه العذاب في الدنيا والآخرة إن لم يسخره في وجوه الخير والبر. ولا ينبغي للإنسان إن يحسد الناس على ما أوتوا من نعم فالله يختص بفضله

لمن يشاء. ولا خير في مال لا يسخر في مرضاة الله. والمؤمن قنوع لا يجزع إن افتقر ولا تبطره النعماء. إن الكدح إلى الله واستشعار خشيته هما الأساس الذي ينبغي أن تنهض عليه حياة العبد.

٥.الجهل والتزكية.

لقد تبين لنا من أحداث قصة موسى(ع) أن بني إسرائيل قد اعتنقوا الدين الذي جاءهم به رسولهم لكن دون أن يقلعوا عن ممارساتهم القديمة. بل حاولوا المزج بين طرائقهم المنحرفة ومقررات الدين الجديد. وهنا مسألة مهمة ينبغي أن يتنبه لها الجميع وهي أن المرء قد يحتفظ ببعض الأفكار والمعتقدات التي اكتسبها قبل اهتدائه للحق.

٦.سلوك المنافقين.

رأينا في قصة موسى(ع) نماذج لمنافقين يعيشون داخل مجتمع بني إسرائيل ورأينا الأضرار الفادحة التي جروها على مجتمعهم. ونستطيع أن نلمح في شخص السامري طائفة من سمات المنافقين هي: يمكن أن يوجد منافقون بين صفوف المؤمنين - يتحين المنافقون حالات الضعف التي تعتري مجتمعاتهم ليضربوا ضربتهم- يستغلون ضعف الأفراد ليوردوهم موارد الضلال - يتوسلون إلى غاياتهم بمخاطبة غرائز الناس ويبذلون لهم وعودا جوفاء - لا يصارحون أبدا بكفرهم وخروجهم من الدين، بل يتظاهرون بالتقوى والورع. ويذهبون إلى أبعد من ذلك فيزعمون أنهم يفهمون الدين أفضل من غيرهم ومن ثم فإنهم أحق بقيادة الناس

وريادتهم. ومن السمات الأخرى للمنافقين والتي ينبغي أن نتفطن لها، قدرتهم الكبيرة على التأثير على الناس، إذ يستطيع منافق واحد أن يؤثر سلبا على مجتمع بكامله، وفي قصة السامري ما يؤيد هذا القول.

٧.طبيعة بني إسرائيل الجوهرية.

إن التأمل في قصة موسى عليه السلام يدلنا على **أنه** قد واجه عنتا شديدا حتى من قومه الأقربين. فالغطرسة والنزوع إلى الشرك والتمرد من السمات البارزة للشعب اليهودي. ولهذا السبب فقد نزع الله عنهم ثوب العزة والكرامة والرسالة والتفضيل على غيرهم من الأمم بعد أن كساهم إياه ردحا طويلا من الزمن. وفي هذا درس بليغ للمؤمنين.

٨.قصة البقرة والهوس بالتفاصيل.

تكشف هذه القصة آفة معينة أصيب بها بنو إسرائيل: وهي هوسهم المرضي بالتفاصيل. فرغم ما في الدين من بساطة ويسر وبراءة من التعقيد نجدهم يقلبون يسره عسرا وبساطته تعقيدا بإلصاق تفاصيل لا داعي لها وبتحويل الاهتمام من جوهر الدين ولبابه إلى القشور وتوافه الأشياء. لكن الله بيّن أن الدين سهل وبسيط مثل دين إبراهيم عليه السلام. إن قصة البقرة تسلط الضوء على خطل التنقيب والتركيز على التفاصيل غير المجدية كما تدلنا على أن تتبع الصغائر والاهتمام بالتفاصيل لا يأتي بخير بل ينفر الناس ويعسر عليهم وربما أزاغهم في نهاية المطاف عن سبيل الهدى.

٩.قصة الرجل الذي آتاه الله علما وحكما.

تشير هذه القصة إلى أنه ربما كانت هناك حكمة خفية وراء أحداث معينة، لكن معرفة هذه الحكمة فضل يختص الله به بعض عباده. إن الجاهل هو الذي يظن أن الأشياء هي الأشياء والعاقل من يثق في أن وراء كل حادثة تقع حكمة وتقدير إلهي يخفى حينا ويدركه أصحاب الإيمان الحق أحيانا.

وختاما نقول إن الدرس الأهم الذي يستفاد من هذه القصة هو السمو الخلقي والتألق الإيماني الذي أبداه كل من موسى(ع) وهارون عليهما السلام. فهما رسولان من رسل الإسلام أوحى الله إليهما كلماته ورسالاته. ورغم آلاف السنين التي تفصل بيننا وبين العهد الذي ظهر فيه موسى إلا أن سلوكه وخلقه ظلا مثالا يحتذى ومعلما يهتدي به السائرون على طريق الإيمان إلى قيام الساعة. فقد اصطنع الله موسى لنفسه واصطفاه وكلمه وكلفه بحمل رسالته إلى الناس. وفي القرآن ثناء عطر وإطراء جميل لهذين النبيين الكريمين:

"وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ" (٣٧: ١١٩-١٢٢).

لقد رضي الله عنهما مثلما رضي عن رسله قاطبة. نسأل الله أن ينور قلوبنا وعقولنا بنور الحكمة لنتفهم أكثر حياة هؤلاء الرسل الكرام وأن يعمنا برحمته ويدخلنا في زمرة الصالحين. آمين.

الملحق:

انهيار الدّاروينية

لقد ظهرت النظرية الدّاروينية، يعني نظرية التطور بهدف رفض فكرة الخلق، بيد أنها لم تنجح في ذلك، واُعتبرت مجرد سفسطة خارجة عن نطاق العلم. وهذه النظرية تدّعي أن الكائنات الحية تولدت بطريق المصادفة من الكائنات غير الحية، وقد تم ردها ونقضها بعد أنّ أثبت العلم أنّ الكون والكائنات الحية تحتوي على أنظمة غاية في الإعجاز. وعلى هذا النحو أثبت العلم كذلك أن الله تعالى هو خالق الكون وخالق جميع الكائنات الحية.

وهذه النظرية لا تقوم سوى على مناقضة الحقائق العلمية والأكاذيب التي ترتدي لباس العلم وجملة من التزييفات، وقد تم القيام بحملة واسعة على نطاق العالم لكي تبقى هذه النّظرية قائمة على أقدامها، غير أن هذه الحملة لم تتمكن من إخفاء الحقيقة.

لقد تعالت الأصوات خلال الثلاثين سنة الماضية في دنيا العلم تبيّن بأن نظرية التطور تمثل أكبر خديعة في تاريخ العلم. وقد أثبتت الأبحاث التي أجريت بشكل خاص اعتبارًا من عام ١٩٨٠ بأنّ الإدعاءات الدّاروينية عارية تماما من الصّحة، وقد تم التصريح بذلك من قبل العديد من كبار رجال العلم. ففي الولايات المتحدة بشكل خاص، صرح الكثير من علماء البيولوجيا والكيمياء الحيوية وعلم الحفريات وغيرها من العلوم الأخرى بأن الداروينية وصلت إلى طريق مسدود وأنّ أصل الكائنات الحية هو الخلق. واليوم تؤكد التطوّرات العلمية بأن الكون وجميع الكائنات الحية قد خُلقت من قبل الله تعالى.

لقد تناولنا مسألة انهيار نظرية التطور ودلائل الخلق في مواضع كثيرة من أعمالنا، وسوف نُواصل ذلك في أعمال أخرى. ولكن بالنظر إلى الأهمية البالغة التي يكتسيها هذا الموضوع رأينا أنه من الفائدة إيراد ملخص لذلك في هذا الموضع أيضا.

الانهيار العلمي للنظرية الداروينية

بالرغم من أن هذه النظرية تعود في جذورها إلى التاريخ الإغريقي القديم، إلا أنها شهدت أوسع انتشار لها في القرن التاسع عشر . كان أهم تطور شهدته النظرية هو صدور كتاب تشارلز داروين "أصل الأنواع" الذي صدر عام ١٨٥٩. في هذا الكتاب ينكر داروين أن الأنواع المختلفة على الأرض قد خلقها الله. يقول داروين أن جميع الكائنات الحية لها جد مشترك وأنها قد تنوعت واختلفت بسبب اختلافات طارئة متدرجة أتت عليها عبر الأزمان.

وكما يقر داروين نفسه، فإن نظريته لا تقوم على أي حقيقة علمية ثابتة، بل إنها مجرد "إفتراض". علاوة على ذلك، يعترف داروين في فصل مطول من كتاب بعنوان "المصاعب

التي تواجهها النظرية" أن النظرية تتهاوى أمام العديد من الأسئلة الحرجة.

عقد داروين آماله على الاكتشافات العلمية التي كان يظن أنها ستزيل العقبات التي تواجهها نظريته، إلا أن ما أثبتته هذه الاكتشافات جاء عكس ما تمناه الرجل.

وتظهر هزيمة داروين أمام العلم الحديث من خلال ثلاث نقاط رئيسية:

١ لم تتمكن هذه النظرية بأي وسيلة من الوسائل أن تفسر كيف نشأت الحياة على وجه الأرض.

٢ لا يوجد أي اكتشاف علمي يدل على قدرة "التقنيات التطورية" التي تفترضها النظرية على التطور في أي حال من الأحوال.

٣ مايثبته السجل الإحاثي هو عكس الادعاءات التي تقوم عليها نظرية التطور.

سنناقش في هذا الفصل هذه النقاط الثلاث الرئيسية:

العقبة الأولى التي لم تذلل: أصل الحياة

تقول نظرية التطور أن جميع الكائنات الحية قد تطورت عن خلية وحيدة ظهرت على سطح الأرض البدائية منذ ٣,٨ ملايين سنة. ولكن كيف يمكن لخلية وحيدة أن ينشأ عنها الملايين من الأنظمة والأنواع الحية؟ وإذا كان هذا التطور قد حدث فعلاً فلماذا لم تظهر علائمه في السجلات الإحاثية ، هذا سؤال لم تتمكن النظرية الإجابة عليه. إلا أن السؤال الأول الذي بقي يواجه هذه النظرية، التي لم تجد جوابا عليه حتى الآن، هو كيف نشأت "الخلية الأولى".

تفسر نظرية التطور، التي لا تعترف بالخلق ولا تقبل بوجود خالق، نشوء الخلية الأولى على أنها أتت عن طريق الصدفة التي تتضمنها قوانين الطبيعة. حسب هذه النظرية تكون المادة الحية قد نشأت من مادة غير حية نتيجة للعديد من المصادفات، ومن المؤكد أن هذا الزعم لا يتوافق مع أبسط قواعد علم الأحياء.

الحياة تنشأ من الحياة

في هذا الكتاب، لم يتطرق داروين إلى أصل الحياة. فقد كان الفهم البدائي لحقيقة الحياة في عصره يعتمد على الإفتراض بأن الكائنات الحية ذات بنيات بسيطة جداً. لقد لاقت نظرية النشوء التلقائي التي انتشرت في القرون الوسطى، والتي تقول أن المواد غير الحية تجمعت

من تلقاء نفسها لتشكل كائن حي، رواجاً واسعاً في ذلك الزمن. من الاعتقادات التي نتجت عن هذه النتيجة هي أن الحشرات تنشأ عن بقايا الطعام، وأن الجرذان تأتي من القمح. هنا يجدر بنا أن نتعرض لتجربة مضحكة قام بها البعض، حيث تم وضع بعض القمح على قطعة وسخة من القماش، وكان المنتظر أن يخرج جرذاً بعد برهة من الزمن.

ومن المنطلق ذاته كان يعتقد أن الديدان تخرج من اللحم؛ إلا أنه لم يلبث العلم أن أثبت أن الديدان لا تخرج من اللحم بشكل تلقائي، وإنما يحملها الذباب بشكل يرقانات لا ترى بالعين المجردة.

كان هذا الاعتقاد سائداً في الزمن الذي كتب فيه داروين كتاب "أصل الأنواع" ، فقد كان يعتقد بأن البكتريا جاءت إلى الوجود من مادة غير حية وكان هذا الاعتقاد مقبوا علمياً.

لم يطل الوقت حتى أعلن باستور نتائج دراساته الطويلة وأبحاثه الكثيرة التي تدحض أساس نظرية داروين. قال باستور في محاضرته التي أعلن فيها عن انتصاراته في السوربون عام ١٨٦٤:

"لا يمكن أن تستفيق نظرية النشوء التلقائي من الضربة الصاعقة التي أصابتها بها هذه التجربة البسيطة."[١]

قاوم المدافعون عن النظرية الداروينية اكتشافات باستور لوقت طويل. إلا أن ماجاء به باستور بالإضافة إلى ما كشف عنه التقدم العلمي من البنية المعقدة لخلية المادة الحية، أبقيا فكرة وجود الحياة على سطح الأرض عن طريق الصدفة في مأزق لم تستطع الخروج منه.

المحاولات العاجزة في القرن العشرين

إن أول من تبنى موضوع منشأ الحياة في القرن العشرين كان التطوري المشهور ألكسندر أوبارين. تقدم هذا العالم بالعديد من الآراء العلمية في الثلاثينيات من ذلك القرن، حاول من خلالها إثبات إمكانية تطور خلية الكائن الحي عن طريق الصدفة. إلا أن دراساته لم تنته إلا بالفشل، مما حدا بأوبرين تقديم الاعتراف التالي: " للأسف، بقيت مشكلة منشأ الخلية الأولى أكثر النقاط غموضاً في دراسة تطور الأنظمة الحية".[٢]

حمل التطوريون بعد أوبرين مسؤولية حل مشكلة منشأ الحياة. وكان أكثر هذه التجارب شهرة تلك التي قام بها الكيميائي الأمريكي ستانلي ميللر عام ١٩٥٣. قام هذا العالم بدمج عدد من الغازات التي يفترض أنها كانت موجودة في المناخ البدائي للأرض، وأضاف إليها

مقدار من الطاقة. من خلال هذه التجربة تمكن ميللر من تركيب عدد من الحموض الأمينية (الجزيئات العضوية) التي تتواجد في تركيب البروتينات.

إلا أنه لم تمض عدة سنوات حتى ثبت بطلان هذه النظرية، التي كانت تعتبر خطوة رائدة في تقدم نظرية التطور، فالمناخ الذي استخدم في هذه التجربة كان مختلفاً جداً عن الظروف الأرضية الحقيقية.[٣]

وبعد فترة من الصمت اعترف ميللر أن المناخ الذي استخدمه في تجربته كان غير حقيقياً.[٤]

لقد باءت جميع محاولات التطوريين في إثبات نظريتهم في القرن العشرين بالفشل. يعترف العالم الجيولوجي بادا من معهد سكريبس في سانت ياغو بهذه الحقيقة في مقالة نشرتها مجلة "الأرض" عام ١٩٩٨:

"ها نحن اليوم نغادر القرن العشرين دون أن نتمكن من حل المشكلة التي بدأنا القرن معها وهي : كيف بدأت الحياة على الأرض؟" [٥]

البنية المعقدة للحياة

السبب الرئيسي الذي أوقع نظرية التطور في مأزق "كيف بدأت الحياة" هو أن الكائنات الحية، حتى البسيطة منها، تنطوي على بنيات في غاية التعقيد. فالخلية الواحدة من الكائن الحي أكثر تعقيداً من أي منتج تقني صنعته يد البشر. فحتى يومنا هذا لا يمكن لأي مختبر كيميائي مهما بلغت درجة تطوره أن ينجح في تركيب خلية حية من خلال تجميع عدد من المواد العضوية مع بعضها.

إن الظروف المطلوب توفرها لتركيب خلية حية هي أكثر بكثير من أن تُعرض. فإمكانية تركيب أحد البروتينات التي تعتبر حجر الأساس في الخلية بشكل عشوائي هي ١ إلى $١٠^{٩٥٠}$ وهذا بالنسبة لبروتين مكون من ٥٠٠ حمض أميني؛ وفي الرياضيات يعتبر أي احتمال أصغر من $١٠^{٥٠}$ مستحيلاً!

إن جزيء الـــ DNA الذي يتواجد في نواة الخلية والذي يخزن المعلومات الوراثية، هو في حد ذاته بنك معلومات معجز. فلو أن المعلومات المشفرة في جزيء DNA قد أفرغت كتابة فإنها ستشغل مكتبة عملاقة مكونة من ٩٠٠ مجلداً من الموسوعات كلا منها يتألف من ٥٠٠ صفحة.

وهنا تنشا مشكلة أخرى مثيرة: فجزيء الـــ DNA لا يمكنه أن يتضاعف إلا بمساعدة بعض البروتينات المختصة (الأنزيمات)، وهذه الأنزيمات لا يمكن أن تتشكل بدورها إلا من خلال المعلومات المشفرة في جزيء الـــ DNA. وبما أن كل منهما يعتمد على الآخر ، فمن الضروري أن يتواجدا في الوقت نفسه عند عملية التضاعف.وهذا يأتي بالنظرية القائلة أن الحياة قد نشأت من تلقاء نفسها إلى طريق مسدود. وقد اعترف البروفسور ليسلي أورجيل ، وهو تطوري مشهور من جامعة سانت ياغو كاليفورنيا بهذه الحقيقة من خلال موضوع نشر في مجلة العلوم الأمريكية عام ١٩٩٤:

"من المستحيل أن تكون البروتينات والحموض الآمينية، وكلاهما جزيئات معقدة، قد نشأت من تلقاء نفسها في نفس الوقت وفي نفس المكان. أضف إلى عدم إمكانية تواجد أحدهما دون الآخر . وهكذا ومن النظرة الأولى يجد أحدنا أنه من المستحيل أن تكون الحياة قد نشأت من خلال عمليات كيميائية بحتة"[٦]

لا شك أنه إذا كان من المستحيل أن تنشأ الحياة من أسباب طبيعية، فلا بد أنها قد "خلقت" بيد خالق. هذه الحقيقة تلغي نظرية التطور ، والتي تهدف بالدرجة الرئيسية إلى إنكار الخلق، من أساسها.

الأفكار الخيالية لنظرية التطور

النقطة الثانية التي تدحض نظرية داروين هي أن كلا المفهومين اللذين وضعتهما النظرية كـــ "تقنيات تطورية" ثبت أنها في الحقيقة لا تملك أي قوة تطورية.

لقد اعتمد داروين في خدعة التطور التي خرج بها على فكرة "الإصطفاء الطبيعي". وقد ضمن هذه الفكرة في كتابه: "أصل الأنواع ، عن طريق الاصطفاء الطبيعي..."

يقول قانون الاصطفاء الطبيعي أن الكائنات الحية التي تمتلك خصائص قوية فقط هي التي يمكن أن تبقى في معركة الحياة. على سبيل المثال، عندما تهاجم الحيوانات المتوحشة قطيعاً من الغزلان، فإن الغزلان الأقوى والتي يمكنها أن تركض بسرعة أكبر هي التي ستنجوا وتبقى على قيد الحياة. وهكذا يتشكل قطيع جديد من الأقوياء والسريعين فقط. ولكن، ولنفترض أننا سلمنا بهذا جدلاً، فهل يمكن لهؤلاء الأقوياء من قطيع الغزلان أن يتطوروا بأي شكل من الأشكال ليصبحوا خيولاً مثلاً؟ بالطبع لا.

لذلك نقول أن هذه الفكرة لا قوة تطورية لها. داروين نفسه كان قلقاً بشأن هذه الحقيقة

التي وضعها في كتابه أصل الأنواع حيث قال:
"لا يمكن لقانون الاصطفاء الطبيعي أن يحقق شيئاً مالم تحدث تغييرات فردية إيجابية"[٧].

تأثير لامارك

ولكن كيف تحدث هذه "التغيرات الإيجابية"؟ حاول داروين الإجابة على هذا السؤال من خلال الفهم البدائي للعلوم في ذلك الوقت. فحسب نظرية لامارك الذي عاش قبل داروين، فإن الكائنات الحية تورث صفاتها التي اكتسبتها خلال حياتها إلى الأجيال التالية ، وهذه الصفات تتراكم من جيل إلى آخر لتشكل أنواع جديدة من الكائنات الحية. فحسب لامارك، الزرافات هي كائنات تطورت عن الظباء عندما كانت تجاهد من أجل الوصول إلى الثمار التي تحملها الأشجار العالية، فطالت رقبتها من جيل إلى آخر حتى استقرت على هذا الطول.

وباقتفاء أثره، أورد داروين مثالاً مماثلاً في كتابه فقال أن الدبب غطست في الماء أثناء بحثها عن الطعام فتحولت إلى حيتان على مر الأجيال".[٨]

إلا أنه ما لبثت أن ظهرت قوانين الوراثة على يد العالم ماندل في القرن العشرين، مما أحبط أسطورة امتداد الصفات عبر الأجيال. وهكذا سقط الاصطفاء الطبيعي كدعامة من دعامات نظرية التطور.

الداروينية الجديدة والطفرات

ومن أجل الوصول إلى حل، قام الداروينيون بتطوير "نظرية تركيبية جديدة" أو ما يدعى بـــ "الداروينية الجديدة" في نهاية الثلاثينيات من القرن العشرين. أضافت الداروينية الجديدة نظرية "الطفرات"وهي تشوهات جينية تطرأ على الكائن الحي وتحدث بفعل تأثيرات خارجية مثل التعرض إلى الإشعاعات وأخطاء في تضاعف الـــ DNA، بالإضافة إلى الطفرات الطبيعية.

و النموذج الذي يقف مدافعاً اليوم عن نظرية التطور هو الداروينية الجديدة.تقول هذه النظرية الجديدة ـــأن الملايين من الأحياء المتواجدة على سطح الأرض قد جاءت نتيجة لطفرات طرأت على الأعضاء المعقدة لهذه الكائنات مثل الآذان والعيون والرئات والأجنحة، أي إضطرابات وراثية. إلا أن الحقيقة العلمية تأتي في عكس الاتجاه المطلوب. فالطفرات لم تكن في يوم من الأيام إيجابية تؤدي إلى تقوية وتعزيز القدرة الحيوية الكائن الحي، وإنما إلى إنهاكها وإضعافها..

والسبب وراء هذا ببساطة هو أن جزيء DNA يحمل بنية معقدة جداً وأي تغيير عشوائي فيها سيؤدي ضرراً كبيراً. يشرح عالم الجينات رانغاناتان الموضوع كالتالي:

"أولاً، الطفرات الجينية نادرة الحدوث. ثانياً الطفرات في معظمها ضارة ومهلكة في بعض الأحيان لأنها تغيرات عشوائية ، وأي تغير غير منظم، علاوة على المنظم ، في أي كائن حي راقييتنحدر به نحو الأسوء ولا ترتقي به إلى الأفضل. فالهزة الأرضية التي قد تصيب أحد الأبنية على سبيل المثال، ستتسبب في تغيير في الإطار العام لها، وهذا بالطبع ما لن يكون تحسيناً في البناء." ٩

لهذا ليس غريباً غياب أي دليل على وجود طفرة كانت السبب في تغيير الشفرة الوراثية نحو الأفضل. على العكس فجميع الطفرات كانت ناكسة . أصبح واضحاً إذاً أن الطفرة التي اعتبرت من تقنيات التطور لا تجلب على الكائن الحي إلا المزيد من الضعف وتجعله عاجزاً. (من التأثرات الشائعة للطفرة في العصر الحديث مرض السرطان). وطبيعي أن لا تكون تقنية مدمرة من تقنيات "التطور"، كما لا يمكن لـــ "الاصطفاء الطبيعي " أن ينجز شيئاً بنفسه. وهذا يعني أنه لا يوجد تقنيات تطور في الطبيعة. وبانتفاء وجود هذه التقنيات تنتفي عملية التطور.

السجلات الإحاثية: لا دليل على وجود أشكال مرحلية

في الحقيقة لا يوجد أي دليل في سجل المستحاثات على أكثر الادعاءات وضوحاً في سيناريو نظرية التطور.

حسب نظرية التطور، فإن كل كائن حي قد نشأ عن كائن قبله، أي أن الكائنات السابقة قد تحولت إلى كائنات أخرى، وكل الأنواع نشأت بهذه الطريقة. وحسب النظرية، فإن هذه التحولات استغرقت ملايين السنين.

وإذا كان هذا الافتراض حقيقي ، فمن الضروري وجود عدد كبير من الأنواع المرحلية التي عاشت في فترة التحول الطويلة. على سبيل المثال لابد من وجود كائن نصفه سمكة ونصفه سلحفاة يحمل صفات السلحفاة بالإضافة إلى صفات الأسماك التي يحملها أصلاً. أو كائنات نصفها طير والنصف الآخر زواحف، أي تحمل بعض صفات الطيور بالإضافة إلى صفات الزواحف التي تحملها أصلاً. وبما أنها في الطور المرحلي، فهي كائنات عاجزة غير مؤهلة، ومعاقة؛ ويطلق التطوريون على هذه الأشكال الخيالية إسم "الأشكال التحولية"

لو كان هناك حيوانات كتلك حقاً، فيجب أن يكون هناك الملايين بل البلايين منها وبشكل متنوع. والأهم من ذلك يجب أن تحمل سجلات المستحاثات بقايا هذه الأحياء الغريبة.

يقول داروين في كتابه "أصل الأنواع":

"إذا كانت نظريتي صحيحة، فلابد من وجود عدداً كبيراً من الأنواع المختلفة التي تصنف ضمن فئة واحدة، وهذا الوجود ستثبته السجلات الإحاثية". [١٠]

آمال داروين تتبدد

بالرغم من جميع محاولات التطوريين الجادة في إيجاد مستحاثات تدعم تصوراتهم في وجود مخلوقات تحولية في منتصف القرن العشرين في جميع أنحاء العالم، إلا أنهم لم يجدوا أ ياً منها . لقد أثبتت جميع المستحاث التي اكتشفت أثناء الحفريات الجيولوجية عكس ما قالت به النظرية الداروينية تماماً: لقد نشأت الحياة فجأة وبتشكل تام لا وجود لأي شكل تحولي.

أقر أحد علماء التطور، العالم الإنجليزي ديريك آغر Derek Ager بهذه الحقيقة عندما قال:

النقطة هي أننا عندما قمنا بتقصي السجل الإحاثي بالتفصيل سواء على مستوى الأنواع أو الترتيب الزمني المرة تلو المرة، لم نجد تطور تدريجي أو مرحلة انتقالية، وإنما ظهور مفاجئ لمجموعة من الكائنات على حساب أخرى. [١١]

هذا يعني أن السجل الإحاثي يبرهن أن جميع الكائنات الحية قد ظهرت على الأرض بشكل مفاجئ بأشكالها التامة، ودون أي طور تحولي، وهذا عكس الإدعاء الدارويني تماماً وإثبات قوي على حقيقة الخلق. فالتفسير الوحيد لنشوء الكائنات الحية بشكل مفاجئ على سطح الأرض بشكلها الكامل ودون تطور عن أجداد سابقين، إنما يعني أن هذه الأنواع قد خلقت خلقاً. ويقر هذه الحقيقة عالم الأحياء التطوري دوغلائس فيوتويما:

"الخلق والتطور، وبينهما التفسيرات المحتملة عن أصل الكائنات الحية. فإما أن تكون الأنواع قد ظهرت على سطح الأرض بتكوينها الكامل، أو لا تكون. إذا لم يكن الأمر كذلك فهذا يعني أنها قد تطورت عن أنواع وجدت مسبقاً من خلال بعض عمليات التحول. أما إذا كانت قد ظهرت بشكلها الكامل ، فلابد أنها قد خلقت خلقاً. [١٢]

والمستحاثات تثبت أن الكائنات الحية قد نشأت بشكلها المكتمل على سطح الأرض،

وهذا يعني أن "أصل الأنواع" ليس كما يدعي داروين، إنه خلق وليس تطور.

قصة تطور الإنسان

الموضوع الذي يحاول مؤيدوا نظرية التطور الكلام به دائماً هو موضوع أصل الإنسان. يدعي الداروينيون أن الإنسان الحالي قد تطور عن نوع من أشباه القردة. وخلال هذه العملية التطورية المزعومة، التي يفترض أنها استغرقت من ٤-٥ ملايين عاماً، ظهرت "أشكال تحولية" تفصل بين الإنسان الحديث وأجداده، كما يزعمون. وحسب هذه الصورة الخيالية البحتة، صنفت هذه الأشكال في أربعة فئات:

١- أوسترالوبيثيكوس

٢- هومو هابيليس.

٣- هومو أريكتوس

٤- هومو سابينس

يطلق التطوريون على الجد الأول للإنسان " أوسترالوبيثيكوس" ويعني "قرد جنوب إفريقيا".والحقيقة هو أن هذا المخلوق ليس إلا نوعا من القرود القديمة المنقرضة. أثبتت الأبحاث الواسعة التي أجراها عالما التشريح ، اللورد سولي زوكرمان والبروفسور تشارلز أوكسنارد، من إنكلترا والولايات المتحدة، على مستحاثات أوسترالوبيثيكوس أن هذه المستحاثات تعود إلى أنواع عادية من القردة التي انقرضت والتي لا تحمل أي شبه مع الإنسان.[١٣]

والفئة الثانية التي يصنفها التطوريون هي "هومو" وتعني "الإنسان" وحسب نظرية التطور، فإن سلالة الهومو أكثر تطوراً من سلالة أوسترالوبيثيكوس. وهنا اخترع التطوريون خطة مثيرة بتركيبهم لهدة مستحاثات من هذه المخلوقات ووضعها بترتيب معين. إلا أن تلك الخطة خيالية لأنه لم يثبت وجود أي علاقة تطورية بين هذه الفئات المختلفة. يقول أحد أهم المعلقين على نظرية التطور إيرنست ماير في كتابه "من المناظرات الطويلة: " تعتبر الأحجية التاريخية التي تتكلم عن أصل الحياة أو أصل الهومو سابينس أحجية صعبة حتى أنها تتعارض مع الاكتشافات الأخيرة."[١٤]

ومن خلال السلسلة التي وضعها التطوريون فإن الفئات الأربع: أوسترالوبيثيكوس، هومو هابيليس، هومو أريكتوس، هومو سابينيس ناشئة عن بعضها البعض. إلا أن الاكتشافات الأخيرة

التي ظهرت على يد علماء المستحاثات البشرية قد أثبتت أن هذه الفئات الأربعأوسترالوبيثيكوس ، هومو هابيليس، هومو أريكتوس، هومو سابينيس قد عاشت في بقاع مختلفة من العالم وفي زمن واحد.[١٥]

علاوة على هذا، فإن الأجزاء البشرية التي صنفت في فئة "هومو أريكتوس" لم تنقرض حتى وقت قريب جداً، أما النياندرتاليين والهوموسابينيس فقد تعايشوا في زمن واحد وفي منطقة واحدة.[١٦]

هذا الاكتشاف يدحض الادعاء بأن أحد منهم يمكن أن يكون جداً للآخر. يفسر عالم الأحياء القديمة ستيفن جاي غولد Stephen Jay Gould من جامعة هارفارد النهاية المسدودة التي وصلت إليها نظرية التطور، بالرغم من أنه عالم تطوري:

ماذا سيكون مصير فكرتنا إذا كان هناك تزامن معيشي لثلاث من فئات الهومو (الإفريقي والأوسترالوبيثيكوس القوي والهومو هابيليس) وثبت أن أحداً منهم لم ينشأ عن الآخر؟ أضف إلى أن أحدا من هؤلاء لم يثبت عليه أي تحول تطوري خلال فترة حياته على سطح الأرض.[١٧]

نقول باختصار، أن سيناريو التطور البشري الذي ينص على وجود مخلوق نصفه إنسان ونصفه قرد والذي قام على استخدام العديد من الصور الخيالية التي ظهرت في الكتب الدعائية لنظرية التطور، ليست إلا قصة لا أساس لها من الصحة العلمية.

وبالرغم من كون العالم سولي زوكرمان، الأكثر شهرة في المملكة المتحدة، عالماً تطورياً، إلا أنه اعترف في نهاية أبحاثه، التي استغرقت عدة سنوات والتي تناولت بشكل خاص مستحاثات أوسترالوبيثيكوس لمدة ١٥ عاماً، أنه لا يوجد شجرة بشرية تتفرع عن مخلوقات شبيهة بالقرود.

صنف زوكرمان العلوم ضمن طيف أسماه "طيف العلوم" يتدرج من العلوم التي يعتبرها علمية لينتهي في العلوم التي يعتبرها غير علمية. وحسب طيف زوكرمان، فإن أكثر العلوم "علمية" — أي التي تقوم على بيانات ومعلومات ملموسة– هي الفيزياء والكيمياء، تليهما العلوم البيولوجية وفي الدرجة الأخيرة العلوم الاجتماعية. وفي نهاية الطيف تأتي العلوم "غير العلمية" والتي يحتل مكانها "الإدراك الحسي المفرط" — وهي مفاهيم الحاسة السادسة والتيليباثي (التخاطر عن بعد) — ويليها "التطور البشري". ويشرح لنا زوكر عمله هذا:

نحن هنا إذاً نتحول من الحقيقة المسجلة موضوعياً إلى تلك المجالات التي يشغلها علم

الأحياء الافتراضي، مثل الإدراك الحسي المفرط، أو التفسير التاريخي للمستحاثات الإنسانية، والتي يبدو فيها كل شيء جائز بالنسبة للتطوري، حيث يكون التطوري مستعداً لتصديق العديد من الأمور المتناقضة في وقت واحد.[١٨]

لقد انحدرت قصة التطور البشري لتصل إلى مستوى التفسيرات المتحيزة لبعض المستحاثات التي استخرجها بعض الأشخاص الذين تعلقوا بهذه النظرية بشكل أعمى.

المعادلة الداروينية

إلى جانب كل ما تناولناه إلى الآن من أدلة تقنية ، نود أن نوجز ـــ إن شئتم ـــ وبمثال واضح بحيث يمكن حتى للأطفال أن يفهموه ، كيف أن التطوريين أولو عقيدة خرفاء فاسدة .

تزعم نظرية التطور أن الحياة تشكلت محض صدفة؛ وعليه وطبقاً لهذا الزعم فإن الذرات الجامدة وغير الواعية اجتمعت وشكلت أولاً خلية، ثم جاءت الذرات نفسها بطريقة أو بأخرى بالكائنات الحية والبشر. ولنفكر الآن: إننا حينما نجمع عناصر مثل الكربون والفسفور والأزوت والبوتاسيوم وهي المفردات الأساسية في بنية الكيان الحي، فإنه تتشكل كومة. ومهما مرت كومة الذرات هذه بأي من العمليات، فإنها لا يمكن أن تشكل كائنا حيا واحدًا. ولنجر تجربة في هذا الصدد إذا ما شئتم ، ولنتناول بالبحث والاستقصاء، باسم التطوريين وتحت عنوان "المعادلة الداروينية"، الزعم الذي ينافحون عنه في الأصل، إلا أنهم لا يستطيعون أن يجهروا به:

فليضع التطوريون كميات وفيرة من عناصر مثل الفسفور والأزوت والكربون والأوكسجين والحديد والماغنسيوم وهي العناصر التي تتشكل منها بنية الكائن الحي، داخل أعداد هائلة من البراميل العظيمة. وليضيفوا حتى إلى هذه البراميل ما يرون أنه من الضروري وجوده داخل هذا المزيج من مواد لا توجد حتى في الظروف الطبيعية. وليفعموا هذا المزيج بقدر ما يشاؤون من الأحماض الأمينية، والبروتين (احتمال تشكل الوحدة الواحدة منه تصادفياً بنسبة ١٠ قوة ٩٥٠). وليمدّوا هذا المزيج بالحرارة والرطوبة بالنسبة التي يرونها مناسبة، وليخفقوه ما شاؤوا من الأجهزة المتطورة، وليقيّضوا على رأس هذه البراميل صفوة علماء العالم، ولينتظر هؤلاء الخبراء في مكانهم هذا وبشكل مستمر مليارات، بل تريليونات السنين بالتناوب من الأب إلى الابن، ومن جيل إلى جيل، ولتكن لهم مطلق الحرية في أن يستخدموا كافة ما يعتقدون في ضرورة وجوده من الظروف من أجل تشكل الكائن الحي. إنّهم مهما فعلوا، ليس بمقدورهم

بالطبع أن يُخرجوا كائنا حيّا من تلك البراميل. ولا يتأتى لهم أن يأتوا بواحدة من الزّرافات أو الأسود أو النحل أو عصافير الكناريا أو البلابل أو الببغاوات أو الخيل أو حيتان يونس أو الورود أو زهور الأوركيد أو الزنابق أو زهور القرنفل أو الموز أو البرتقال أو التمر أو الطماطم أو الشمام أو البطيخ أو التين أو الزيتون أو العنب أو الخوخ أو الطواويس أو طيور الدُّراج أو الفراشات مختلفة الألوان وملايين من الأنواع الحية من مثل هؤلاء. بل ليس بوسعهم أن يأتوا ولو بخلية من هذه الكائنات الحية التي أحصينا عدداً منها، لا بواحدة منها كاملة الخلق.

جملة ما نبغي قوله هو أن الذرات غير الواعية ليس بوسعها أن تجتمع فتشكل خلية حية، ولا تستطيع أن تتخذ قرارًا جديدًا من بعد فتقسم الخلية نصفين، ثم تتخذ قرارات أخرى تباعًا فتأتي بكيان العلماء الذين اخترعوا المجهر الإليكتروني، ممن يراقبون بنية الخلية ذاتها فيما بعد تحت المجهر. إنّ الخلية تدب فيها الحياة فقط بالخلق المعجز لله عز وجل. أما نظرية التطور التي تزعم عكس هذا، فهي سفسطة تتنافى تماما مع العقل والمنطق. وإن إعمال الفكر ولو قليلا في المزاعم التي طرحها التطوريون، ليظهر بجلاء هذه الحقيقة مثلما في النموذج الوارد أعلاه.

التقنية الموجودة في العين والأذن:

أما الموضوع الآخر الذي لم تستطع نظرية التطور أن تأتي له بتفسير جازم، فهو جودة الإدراك الفائقة الموجودة في العين والأذن.

وقبل الولوج إلى الموضوع المتعلق بالعين، نود أن نجيب بإيجاز عن سؤال هو: كيف تبصر العين ؟

إن الأشعة المنبعثة من جسم ما، تسقط بشكل عكسي على شبكية العين، وتقوم الخلايا الموجودة هنالك بتحويل هذه الأشعة إلى إشارات كهربية، تصل إلى نقطة تسمى مركز الإبصار موجودة بالجزء الخلفي للمخ. وهذه الإشارات الكهربية، بعد مجموعة من العمليات يتم التقاطها كصورة في هذا المركز الكائن في المخ. وبعد هذه المعلومة فلنفكر:

إن المخ محجوب عن الضوء، بمعنى أن داخل المخ ظلامًا دامسًا، ولا يتأتى للضوء أن ينفذ إلى حيث يوجد المخ. والموضع الذي يسمى مركز الإبصار موضع حالك الظلمة ليس الضوء ببالغه أصلا، ولعله مظلم بدرجة لم نصادفها قط. إلا أنكم في هذه الظلمة الحالكة تشاهدون عالما مضيئا متوهجا.

فضلا عن كونه منظرًا على درجة من النقاء والجودة تعجز حتى تقنية القرن الحادي والعشرين ـــ رغم كل الإمكانيات ـــ أن تأتي بمثلها. انظروا مثلا إلى الكتاب الذي بين أيديكم الآن، وانظروا إلى أيديكم التي تمسك الكتاب، ثم ارفعوا رأسكم وانظروا حولكم. أرأيتم منظرًا بهذا النقاء والجودة في أي موضع آخر؟ إن شاشة أكثر أجهزة التلفاز تطورًا والتي تنتجها شركة أجهزة التلفاز الأولى على مستوى العالم، لا يمكن أن تمنحكم صورة بهذا القدر من النقاء. ومنذ مائة عام وآلاف المهندسين يسعون للوصول إلى هذا النقاء، ومن ثم تُشيَّد المصانع والمؤسسات العملاقة، وتُجرى الأبحاث، ويتم تطوير الخطط والتصميمات. ولتنظروا ثانية إلى شاشة التلفاز، وفي اللحظة ذاتها إلى الكتاب الذي بين أيديكم، فسوف ترون أن هناك فرقاً شاسعاً في النقاء والجودة. فضلا أن شاشة التلفاز تبدي لكم صورة ثنائية الأبعاد، في حين أنكم تتابعون مناظر ثلاثية الأبعاد ذات عمق.

ومنذ سنوات طوال يسعى عشرات الآلاف من المهندسين لتصنيع شاشات جهاز تلفاز تعطي صورة ثلاثية الأبعاد، والوصول إلى جودة رؤية العين. نعم لقد أمكنهم تصميم نظام تلفاز ثلاثي الأبعاد، غير أنه ليس في الإمكان رؤيته ثلاثي الأبعاد دون ارتداء النظارة. ومع أن هذه الأبعاد الثلاثة اصطناعية. فالجهة الخلفية تظل عكرة، أما الجهة الأمامية فتبدو وكأنها صورة من ورق. ولا يتشكل أبدا منظر في جودة ونقاء المنظر الذي تراه العين. ويحدث بالطبع أن تضيع الصورة في الكاميرا والتلفاز.

وها هم التطوريون يزعمون أن آلية الإبصار في العين والتي تظهر هذا المنظر الذي يتسم بالجودة والنقاء، إنما تشكلت بمحض المصادفة . والآن إذا ما قال أحد لكم إن التلفاز الموجود في حجرتكم، إنما قد تشكل نتيجة مصادفات، وأن الذرات تجمعت وجاءت بالجهاز الذي يشكل هذه الصورة، ماذا تعتقدون فيه؟! كيف لذرات غير واعية أن تصنع ما لم يتأت لآلاف الأشخاص مجتمعين أن يصنعوه ؟!

إنّ الآلة التي تشكل منظرًا هو أكثر بدائية مما تراه العين، لو أنها لا تتشكل مصادفة، فإنه من الواضح للغاية أن العين والمنظر الذي تراه بدورهما لن يتشكلا محض مصادفة، والحال كذلك بالنسبة للأذن . فالأذن الخارجية تجمع الأصوات المحيطة بواسطة صوان الأذن، وتقوم بتوصيلها إلى الأذن الوسطى، لتقوم هي الأخرى بتقوية الذبذبات الصوتية ونقلها إلى الأذن الداخلية، لتقوم بدورها بتحويل هذه الذبذبات إلى إشارات كهربية، وإرسالها إلى المخ. وعملية السمع أيضا كما هو الشأن في عملية الإبصار تتم في مركز السمع الموجود في المخ.

والوضع الذي في العين يسري كذلك على الأذن. بمعنى أن المخ محجوب كذلك عن الصوت مثلما هو محجوب عن الضوء، فالصوت لا ينفذ، وعليه فإنه مهما بلغت شدة الضجيج خارج المخ، فإن داخله ساكن تمام السكون. ورغم هذا فإن أنقى الأصوات تُلتقط في المخ. ولو أنكم تسمعون سيمفونيات أوركسترا في مخكم الذي لا ينفِذ إليه الصوت، فإنكم تشعرون بكل صخب أحد الأوساط المزدحمة. وإذا ما قيس مستوى الصوت الذي بداخل المخ باستخدام جهاز حساس في تلك اللحظة، فسيتضح أنه يُطبق عليه السكون التام.

وعلى نحو ما استخدمت التقنية أملا في الحصول على صورة نقية، فإن المساعي نفسها تتواصل منذ عشرات السنين بالنسبة كذلك للصوت. وتُعد أجهزة تسجيل الصوت وأشرطة الكاسيت وكثير من الأجهزة الإليكترونية، والأنظمة الموسيقية التي تلتقط الصوت، بعض ثمار هذه المساعي. ولكن على الرغم من كل التقنيات، وآلاف المهندسين والخبراء العاملين بحقلها، لم يتأت الوصول إلى صوت بنقاء وجودة الصوت الذي تلتقطه الأذن. وتأملوا أجود أشرطة الكاسيت التي تنتجها كبرى شركات الأنظمة الموسيقية، فحينما يسجل الصوت، حتما يضيع شطر منه، أو يحدث تشوش بالطبع ولو قليلا، أو أنه حينما تقومون بتشغيل شريط الكاسيت فإنكم لا بد أن تسمعوا له صريرًا قبل أن تبدأ الموسيقى. في حين أن الأصوات التي من نتاج التقنية الموجودة بالجسم الإنساني تتسم بأقصى درجات النقاء، ولا تشوبها شائبة. ولا تلتقط أذن إنسان أبدًا الصوت بشكل به صرير أو تشويش. وأيا ما كانت طبيعة الصوت فإنها تلتقطه بشكل كامل ونقي. وهذا الوضع لا يزال على ذات الكيفية منذ أن خُلق الإنسان وإلى يومنا هذا. وإلى الآن ليس ثمة جهاز بصري أو صوتي من صنع بني الإنسان يلتقط الصورة والصوت بشكل حساس وناجح مثل العين والأذن.

وفيما عدا هذا كله، فإنه ثمة حقيقة عظيمة للغاية في عملية الإبصار والسمع.

لمن تعود حاسة الإبصار والسمع داخل المخ ؟

من ذا الذي بداخل المخ يشاهد عالما مضيئا ملونا، ويسمع السيمفونيات وزقزقة العصافير، ويتنسم عبير الورود؟ إن التنبيهات الآتية من عيني الإنسان وأذنيه وأنفه تمضي إلى المخ في صورة إشارة كهربية. وإنكم لتطالعون تفصيلات كثيرة في كتب علم الأحياء والطبيعة والكيمياء الحيوية، بيد أنكم لا يمكن أن تصادفوا في أي موضع قط أهم حقيقة ينطوي عليها هذا الموضوع ألا وهي: من ذا الذي بالمخ يتلقى هذه الأشارات الكهربية ويدركها

على أنها صورة وصوت ورائحة وإحساس. إن ثمة حاسة توجد بداخل المخ تلتقط هذا كله دون حاجة إلى عين أو أذن أو أنف، لمن تعود هذه الحاسة. بالطبع لا تعود على ما يشكل المخ من أعصاب وطبقات دهنية وخلايا عصبية. وهكذا ولهذا السبب ليس بمقدور الماديين الداروينيين ممن يظنون أن كل شيء ليس سوى مادة، أن يجيبوا على هذه التساؤلات، لأن هذه الحاسة إنما هي الروح التي خلقها المولى عز وجل. فهي لا تحتاج إلى عين حتى ترى الصورة، ولا أذن حتى تسمع الصوت. وعلاوة على هذا كله، فهي ليست بحاجة إلى مخ كيما تفكر. إن كل امرئ يطالع هذه الحقيقة العلمية الجلية، عليه أن يفكر في الله عز وجل الذي جمع بمكان حالك الظلمة داخل المخ يقدَّر بعدة سنتيمترات مكعّبة، الكائنات كافة بصورة ثلاثية الأبعاد ذات ألوان وظلال وضياء، ويخشاه ويلوذ به.

عقيدة مادية

إن ما تناولناه إلى الآن بالبحث والتدقيق ليظهر أن نظرية التطور ما هي إلا زعم يتعارض بوضوح مع الاكتشافات العلمية، ويجافي زعم النظرية ــ فيما يتعلق بأصل الحياة ــ المنطق العلمي. فليس لأية آلية تطور قط طرحتها النظرية أي تأثير تطوري. وتكشف الحفريات أن الكائنات الحية لم تمر بمراحل بينية تلك التي تستوجبها النظرية. وفي هذه الحالة يتعين تنحية نظرية التطور جانبا باعتبارها فكرة مجافية للعلم. لا سيما وأن كثيرًا من الأفكار التي ظهرت على مدار التاريخ، مثل فكرة أن الأرض هي مركز الكون، قد حُذفت من أجندة العلم. في حين أن نظرية التطور يُتشبث بها وبإصرار في هذه الأجندة، حتى إنه من الناس من يسعى لإظهار أي انتقاد موجه إلى النظرية وكأنه هجوم على العلم ! لِمَ هذا إذن؟!

إن السبب في هذا الوضع إنما هو تكون عقيدة جازمة لنظرية التطور لا يمكن النكوص عنها بالنسبة إلى بعض الأوساط. وتخلص هذه الأوساط إخلاصاً أعمى للفلسفة المادية، وتتبنى الداروينية كذلك لأنها التفسير المادي الوحيد للطبيعة الذي يمكن الإتيان به.

وأحيانا يعترفون صراحة بهذا، ويعترف ريتشارد لونتين (Richard Lewontin) ــ عالم الوراثة الشهير بجامعة هارفرد وفي الوقت ذاته تطوري بارز، ــ بأنه "مادي في المقام الأول، ثم عالم في المقام الذي يليه"، إذ يقول:

"إن لنا إيمانا بالمادية، وهو إيمان استباقي (اعتُنق سلفا، وافترضت صحته). والشيء الذي يدفعنا إلى الإتيان بتفسير مادي للعالم، ليس هو أصول العلم وقواعده، بل على العكس

من ذلك فإننا ــ بسبب من إخلاصنا سلفا للمادية ــ نختلق أصول ومفاهيم بحثية تأتي بتفسير مادي للعالم. ونظرا إلى كون المادية صحيحة صحة مطلقة، فإننا لا يمكن أن نسمح بدخول تفسير إلهي إلى الساحة".[١٩]

وتُعد هذه الكلمات اعترافات صريحة بأن الداروينية مولود يحيا في سبيل الإخلاص للفلسفة المادية. وهذا المولود يفترض أنه ما من وجود قط سوى المادة. ولهذا السبب يعتقدون أن المادة الجامدة عديمة الوعي إنما خلقت الحياة. ويذهبون إلى أن ملايين الأنواع الحية المختلفة مثل الطيور والأسماك والزرافات والنمور والحشرات والأشجار والأزهار وحيتان البال والبشر إنما تشكلت من داخل المادة الجامدة وبالتفاعلات الحادثة داخل المادة ذاتها؛ أي بالمطر الساقط، والبرق الخاطف. أما في حقيقة الأمر فإن هذا يتنافى مع العقل والمنطق على السواء. بيد أن الدارونيين يستمرئون المنافحة عن هذا الرأي بُغية "عدم دخول تفسير إلهي إلى الساحة" على حد تعبيرهم.

أما من لا ينظرون إلى أصل الكائنات الحية وفي أذهانهم حكم مادي مسبق، فسوف يدركون هذه الحقيقة الجلية. والكائنات الحية كافة إنما هي من صنع خالق ذي قوة وعلم وعقل معجز. إنه الله الذي خلق الكون كله من العدم، ونظّمه بشكل لا تشوبه شائبة أو قصور، وخلق الكائنات الحية كافة وصوّرها.

إن نظرية التطور هي أشد السحر تأثيراً في تاريخ العالم

يتعين هنا أن نوضح أن أيما إنسان يُعمِل عقله ومنطقه دون أحكام مسبقة ودون الوقوع تحت تأثير أي أيديولوجية، سيدرك بسهولة ويسر أن نظرية التطور التي تذكرنا بخرافات المجتمعات التي عاشت بمنأى عن العلم والحضارة، ليست سوى زعم يستحيل تصديقه.

وعلى النحو المتقدم تبيانه، فإن من يؤمنون بنظرية التطور يعتقدون أن الأساتذة الذين يفكرون ويعقلون ويخترعون، والطلاب الجامعيين والعلماء مثل إينستين (Einstein) هوبل (Hubble)، والفنانين مثل فرانك سيناترا (Frank Sinatra) وتشارلتون هيستون (Charlton Heston)، يضاف إليهم كائنات مثل الغزلان وأشجار الليمون وزهور القرنفل، سوف يخرجون مع مرور الزمان من مزيج من كثير من الذرات والجزئيات والمواد غير الحية التي تملأ برميلا عظيما. لا سيما وأن من يؤمنون بهذا الخَرَف هم علماء وأساتذة وأناس على قدر من الثقافة والتعليم. ولهذا السبب فإن استخدام تعبير "أشد السحر تأثيرًا في تاريخ العالم" بالنسبة إلى

نظرية التطور سيكون استخدامًا في محله. إذ إنه ليس في تاريخ العالم اعتقاد أو زعم آخر سلب عقول البشر بمثل هذه الدرجة وحرمهم من فرصة التفكير بالعقل والمنطق، وكأنه أسدل ستارًا أمام أعينهم، حال دون أن يروا الحقيقة التي كانت واضحة بجلاء. وإنّ هذا لغفلة وعدم بصيرة لا يستسيغها عقل مثلها كمثل عبادة بعض القبائل الإفريقية للطوطم وعبادة أهل سبأ للشمس وعبادة قوم إبراهيم عليه السلام للأوثان، التي كانوا يصنعونها بأيديهم، وعبادة قوم موسى عليه السلام للعجل الذي صنعوه من ذهب. وهذا الوضع في حقيقته إنما هو حماقة أشار إليها الله تعالى في القرآن الكريم. وينبئنا المولى عز وجل في كثير من آياته بأن من الناس من سيستغلق عليه الفهم ويتردون إلى حال يعجزون فيه عن رؤية الحقائق. ومن بين هذه الآيات قوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ (البقرة: ٦-٧).

وقوله أيضا :

لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (الأعراف: ١٧٩).

أما في سورة الحِجْر فيخبرنا الله عز وجل بأن أولئك الناس قد سُحروا بحيث أنهم لن يؤمنوا حتى ولو رأوا المعجزات، إذ يقول سبحانه وتعالى:

وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (الحجر: ١٤-١٥)

وإن امتداد هذا السحر بشكل مؤثر على قطاعات عريضة من الناس بهذا القدر، وابتعاد الناس عن الحقائق بهذه الدرجة، وبقاء هذا السحر منذ ١٥٠ عاما، لهو وضع مثير للحيرة والدهشة بدرجة لا يمكن شرحها بكلمات، لأنه من الممكن أن يستسيغ العقل اعتقاد شخص أو عدة أشخاص لسيناريوهات مستحيلة ومزاعم حافلة بالخَرَف والهراء والأمور غير المنطقية، إلا أن اعتقاد الكثيرين من البشر في كافة أنحاء العالم بأن الذرات اللاوعية والجامدة قد اجتمعت بقرار فجائي، فأتت بالكون الذي نراه يعمل بنظام لا تشوبه شائبة، ويكشف عن تنظيم غير عادي ونظام متقن غاية الاتقان، وبكوكب الأرض الذي يختص بكافة السمات المناسبة للحياة، وبكائنات حية مزودة بأنظمة معقدة تفوق الحصر، ليس له من تفسير سوى أنه سحر.

كما أن الله عز وجل ينبئنا من خلال تلك الحادثة التي وقعت بين موسى عليه السلام وفرعون، بأن بعض الأشخاص ممن ينافحون عن الفلسفة الإلحادية، يؤثّرون على الناس بما يصنعونه من السحر. فحينما قص موسى عليه السلام نبأ الدين الحق على فرعون، طلب فرعون إلى موسى أن يلتقي بسحرته في موضع يحتشد فيه الناس. وحينما التقى موسى السحرة أمرهم أن يبادروا هم باستعراض مهاراتهم. والآية التي تسرد هذه الحادثة تقول: **"قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ"**(الأعراف:١١٦). وعلى نحو ما تبدى تمكن سحرة فرعون بما صنعوه من خدع أن يسحروا الناس جميعا باستثناء موسى والذين آمنوا به. إلا أن البرهان الذي ألقاه موسى في مواجهة ما ألقاه هؤلاء على حد التعبير الوارد بالقرآن الكريم "تَلَقَّفَ مَا يَأْفِكُونَ"، أي أنّه أبطل تأثيره، يقول تعالى:

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ" (الأعراف: ١١٧-١١٩)

وعلى نحو ما ورد في الآيات، و مع إدراك أن ما فعله هؤلاء الأشخاص الذين سحروا الناس من قبل وأثروا عليهم إنما هو إفك، باؤوا بالذل والضعّة. وأولئك الذين يؤمنون بمزاعم خرقاء إلى أقصى درجة تحت غلاف من العلم وبتأثير السحر في عصرنا الراهن، وينذرون حياتهم للدفاع عنها، فسوف يسقط شأنهم ويُذلوا ما لم يتخلوا عن هذه المزاعم، وذلك حينما تظهر الحقيقة بجلاء بكامل معانيها، و"يبطل تأثير السحر".

ويشرح مالكوم موجريدج (Malcolm Muggeridge) الذي ظل ينافح عن نظرية التطور حتى ناهز الستين من عمره، وكان فيلسوفاً ملحداً، ولكنه أدرك الحقائق من بعد الوضع الذي ستتردى إليه نظرية التطور في المستقبل القريب قائلا:

"إنني أنا نفسي صرت مقتنعا بأن نظرية التطور ستكون إحدى مواد المزاح الموجودة بكتب تاريخ المستقبل لا سيما في المجالات التي طُبقت فيها. وسيتلقى جيل المستقبل بالدهشة والحيرة اعتناق فرضية متهرئة يكتنفها الغموض بسذاجة لا يصدقها عقل".[٢٠]

وهذا المستقبل ليس ببعيد، بل على العكس من ذلك، فإن البشر في المستقبل القريب للغاية، سيدركون أن المصادفات ليست إلهاً وسوف يتم الاعتراف بأن نظرية التطور إنما هي أكبر خدعة وأشد أنواع السحر في تاريخ العالم. وسرعان ما بدأ هذا السحر الشديد ينحسر عن الناس في شتى أنحاء الأرض، وبات الكثيرون ممن وقفوا على سر خدعة التطور، يتساءلون بدهشة وحيرة كيف انطلت هذه الخدعة عليهم.

١. Sidney Fox, Klaus Dose, Molecular Evolution and The Origin of Life, New York: Marcel Dekker, ١٩٧٧, p. ٢

٢. Alexander I. Oparin, Origin of Life, (١٩٣٦) New York, Dover Publications, ١٩٥٣, p.١٩٦

٣. "New Evidence on Evolution of Early Atmosphere and Life", Bulletin of the American Meteorological Society, vol. ٦٣, Nov ١٩٨٢, pp. ١٣٢٨-١٣٣٠

٤. Stanley Miller, Molecular Evolution of Life: Current Status of the Prebiotic Synthesis of Small Molecules, ١٩٨٦, p. ٧

٥. Jeffrey Bada, Earth, Feb ١٩٩٨, p. ٤٠

٦. Leslie E. Orgel, The Origin of Life on Earth, Scientific American, vol. ٢٧١, Oct ١٩٩٤, p. ٧٨

٧. Charles Darwin, The Origin of Species: A Facsimile of the First Edition, Harvard University Press, ١٩٦٤, p. ١٨٩

٨. Charles Darwin, The Origin of Species: A Facsimile of the First Edition, Harvard University Press, ١٩٦٤, p. ١٨٤

٩. B. G. Ranganathan, Origins?, Pennsylvania: The Banner Of Truth Trust, ١٩٨٨

١٠. Charles Darwin, The Origin of Species: A Facsimile of the First Edition, Harvard University Press, ١٩٦٤, p. ١٧٩

١١. Derek A. Ager, "The Nature of the Fossil Record", Proceedings of the British Geological Association, vol. ٨٧, ١٩٧٦, p. ١٣٣

١٢. Douglas J. Futuyma, Science on Trial, New York: Pantheon Books, ١٩٨٣, p. ١٩٧

١٣. Solly Zuckerman, Beyond The Ivory Tower, New York: Toplinger Publications, ١٩٧٠, pp. ٧٥-٩٤; Charles E. Oxnard, "The Place of Australopithecines in Human Evolution: Grounds for Doubt", Nature, vol. ٢٥٨, p. ٣٨٩

١٤. J. Rennie, "Darwin's Current Bulldog: Ernst Mayr", Scientific American, Dec ١٩٩٢

١٥. Alan Walker, Science, vol. ٢٠٧, ١٩٨٠, p. ١١٠٣; A. J. Kelso, Physical Antropology, ١. ed, New York: J. B. Lipincott Co., ١٩٧٠, p. ٢٢١; M. D. Leakey, Olduvai Gorge, vol. ٣, Cambridge: Cambridge University Press, ١٩٧١, p. ٢٧٢

١٦. Time, Nov ١٩٩٦

١٧. S. J. Gould, Natural History, vol. ٨٥, ١٩٧٦, p. ٣٠

١٨. Solly Zuckerman, Beyond The Ivory Tower, New York: Toplinger Publications, ١٩٧٠, p. ١٩

١٩. Richard Lewontin, "The Demon-Haunted World", The New York Review of Books, ٩ Jan ١٩٩٧, p. ٢٨

٢٠. Malcolm Muggeridge, The End of Christendom, Grand Rapids: Eerdmans, ١٩٨٠, p. ٤٣

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيــمُ الحَكِيــمُ ﴾

البقرة: ٣٢